

تفسير الفاسي  
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

( تادم الكتاب والسنة )

بمجددنا عبد الباقا

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لَّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ  
[ ٣٨ / ص ٢٩ ]

# تفسير الفاسمي المسكبي

## مَحَاسِنُ التَّائِيلِ

تأليف علامته الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء التاسع

وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

( خادم الكتاب والسنة )

محمد زكي عبد الباقى

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
ميسى الباقى الجليلى وشركاه







الطبعة الأولى  
جميع الحقوق محفوظة





كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأومير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »  
المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع

فهماً تراح إليه ضمائرهما ، وتنمقد عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالمعلم والعمل والتعليم ، والتهديب

والتأليف ، وأحد حلقات الانصال

بين هذى السلف ، والارتقاء المدينى

الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد مهجى البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالمعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء

مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغن الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه

الواسمة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول

الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ١٠ - سُورَةُ يُونُسَ

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله <sup>(١)</sup> « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخير ، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب - قاله المهايي - .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى <sup>(٢)</sup> : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ . . . » الآيتين . وقوله <sup>(٣)</sup> : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكي ، والباقي مدني - حكاه ابن الفرس والسخاوي في ( جمال القراء ) - .

وآياتها مائة وتسعة .

(١) [ ١٠ / يونس / ٩٨ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ٩٥، ٩٤ ] .

(٣) [ ١٠ / يونس / ٤٠ ] .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

«الر» مسرود على نمط التعميد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ (الر) . والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت فى حكم الحاضر ، كما يقال : هذا ما اشتري فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة «تِلْكَ» إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الر) مسرودة على نمط التعميد ، فقد نزل حضور مادتها ، التى هى الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف البسطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويعها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ، ومحله الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

«آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» ، وعلى تقدير كون (الر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هى آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتها منه ، وصفا بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل السكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه فى علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك . و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستمارة المسكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة - أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى :



القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) « أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حاله ، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و(العين) على الجاسوس ، و(الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتين . أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ (مَقْعَدٌ صِدْقٍ) <sup>(١)</sup> بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدم صدق) أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجمعها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال في (الاتصاف) : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب في الحقيقة . « قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتمجبون « إِنَّ هَٰذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقرئ (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه . وهو دليل عجزهم وأعترافهم ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز الفخيم . ثم بين تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقيقة ما تمجّبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها يادنى تذكير ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ »  
قال البخاري (١) في صحيحه في الرد على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكليف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات . و ( الأيام ) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمر الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لمظمته وعز جلاله ، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَلِكُمْ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وخذوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تمبدونه .

(١) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء وهو رب

العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه . فاستعدوا للقاءه «وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا» أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» أى من النطفة «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» أى بعدله أو بمدايتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم ، أو بإيمانهم ، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ» أى من ماء حار قد انتهى حره «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» وجميع يخلص ألمه إلى قلوبهم «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غير النظم المبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجملة حقا مقرر لهم ، كما تفيد (اللام) والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإنابة . والعقاب واقع بالمرض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يتولى إنابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى الفيرين ، إثر الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للعالمين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . « وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ » الضمير لها ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازلها معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب « لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ » أى حساب الشهور والأيام ، مما يبط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطى : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .  
ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

« إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تماقبيهما وكون كل منهما خلفه الآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجمال والبحار وغير ذلك « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالع حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المفتطمون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العاقبة .

تنبيه :

في هذه الآيات إشارة إلى أن الذى أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وأحسن كل شئ خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان - يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبليغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقاؤهم فى الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٧ ] ( إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ )

[ ٨ ] أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

[ ٩ ] ( إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ )

[ ١٠ ] ( دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* » إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى ماوَاهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان ماوى الكفرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ « أَى مِنْ تَحْتِ مَنَازِلِهِمْ أَوْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . « دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أَى دَعَاؤُهُمْ هَذَا السَّكَلَامَ ، لِأَن ( اللَّهُمَّ ) نَدَاءٌ ، وَمَعْنَاهُ : اللَّهُمَّ إِنَّمَا نَسْبِّحُكَ ، كَقَوْلِ الْقَائِنِ : اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . يُقَالُ : دَعَا يَدْعُو دَعَاءً وَدَعْوَى ، كَمَا يُقَالُ : شَكَأ يَشْكُو شَكَايَةً وَشَكْوَى . وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْدَعَاءِ الْعِبَادَةُ ، وَنَظِيرُهُ آيَةُ <sup>(١)</sup> ( وَأَعْتَرِ لَكُمْ ) وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أَى مَا يُجِيبِي بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، أَوْ تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُمْ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى <sup>(٢)</sup> : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أَوْ تَحِيَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ) . وَ ( التَّحِيَّةُ ) التَّكْرِمَةُ بِالْحَالَةِ الْجَلِيلَةِ . أَصْلُهَا : أَحْيَاكَ اللَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . وَ ( السَّلَامُ ) بِمَعْنَى السَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ . « وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ » أَى وَخَاتِمَةُ دَعَائِهِمْ هُوَ التَّسْبِيحُ « أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أَى حَمْدُهُ تَعَالَى : وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ دَعَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَعِبَادَتَهُمْ هُوَ قَوْلُهُمْ . سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ . وَإِشَارُ التَّعْبِيرِ عَنْ ( وَبِحَمْدِكَ ) ، بِقَوْلِهِ : ( وَءَاخِرُ ) الْخُرَافَةِ لِلْفَوَاضِلِ ، وَاهْتِمَاماً بِالْحَمْدِ وَمَا مَعَهُ مِنَ النِّمَاتِ الْجَلِيلَةِ ، تَذْكِيراً بِمَسَامَحَتِهَا . وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى سَمَوَاتِ هَذَا الذِّكْرِ ، لِأَنَّهُ دَعَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَذَكَرَ الْمَلَائِكَةُ كَمَا قَالُوا <sup>(٣)</sup> : ( وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ) ، وَلِذَلِكَ نَدَبُ قِرَاءَتِهِ بَعْدَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ .

قال الرازى لما استسعد أهل الجنة بذكر ( سبحانك اللهم وبحمدك ) ، وعابنوا ما فيه من السلامة عن الآفات والخفافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتعامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء . ولما بين تَعَالَى وعيمده الشديد ، أتبعه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لِأَن حَصُولَهُ فِي الدُّنْيَا كَالْمَنْعِ مِنْ بَقَاةِ التَّكْلِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

- (١) [ ١٩ / مريم / ٤٨ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٢٣ ] .  
(٣) [ ٣٦ / يس / ٥٨ ] . (٤) [ ٢ / البقرة / ٣٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاء تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون <sup>(١)</sup> : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلاً مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » أى لا أميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشرهم يترددون .

لطيفة :

زعم الزمخشري أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسمافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليمكونا من باب واحد - غير ضرورى فى العربية ، والشواهد كثيرة .

وجوز الرازى أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق . ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإعما حذف إيجازاً ، للعلم به . وبوافقه قوله تعالى <sup>(٢)</sup> (وَيَذَرُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

(١) [ ٨ / الأتقال / ٣٢ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيْدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ  
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)  
« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا)  
واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجما « أَوْ قَاعِيْدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ  
مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى ، « كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَلِكَ  
زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية  
سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جابلوا عليه كغيرهم من الالتياء إليه تعالى عند الشدائد ،  
علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله  
الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إر كشف كرباتهم ، وتحذير  
من مثل صنيعهم .

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبأ الأقدمين ليتقوه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)  
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر  
« وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه  
الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزام بالإهلاك المعروف فيهم .  
« كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .



القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبي ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، ففما ملكم حسب عملكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ) « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبي ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : انتِ بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك لى ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيدان بأن استحالة ما افترحوه أولاً ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعاً ، ربما يعد من قبيل المجازة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثاني يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : ( إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيموطى فى ( الإكليل ) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . هـ .

قال الزمخشري : فإن قلت . فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الاقتراح ؛ قلت : السكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنت قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللاطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخرها منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترائه على الله - انتهى - .

ولما بين بطلان ما افترحوه الإتيان به واستحالاته ، أشار إلى تحقيق حقيقة القرآن ، وكونه

من عنده تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

قُلْ « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ » .

قال الزمخشري : معنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن

المادات ، وهو أن يخرج رجل أى لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ، بهر كل كلام فصيح ، ويعلم على كل منشور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تعلمون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شئ من أسرارها ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، وأصدقهم به .

«وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ »  
 أى من قبل نزوله ، لا أنماطى شيئاً مما يتعلق بنحوه ، ولا كنت متواسفاً بعلم وبيان ،  
 فتتهمونى باختراعه . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا  
 من مثلى .

قال الزمخشري : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم ( ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ) من  
 إضافة الافتراء إليه .

#### تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغير  
 والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله  
 عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك  
 ولا ههنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام  
 غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة  
 فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق  
 أحد كائناً من كان ، كما ينبىء عنه تمقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما  
 بين ظهرانيكم قبل الوحي ، لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه  
 شائبة شبهة ، فضلاً عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرّد فى هذا  
 العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهي  
 الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحي مبين ، تنزيل من  
 رب العالمين - انتهى - .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول <sup>(١)</sup> هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا

أبو الليثان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سأله من صفة النبي ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق \* والفضل ما شهدت به الأعداء \* فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ايدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طاب للنجاشي ملك الحبشة<sup>(١)</sup> : بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .  
وعن ابن المسيب : ثلاثا وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكارى معناه الجحد . أى لا أحد أظلم ممن تقول على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أى لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى<sup>(٢)</sup> (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعدّه صادق بلا مربة ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والانسكال ، ولا يشبهه أمره على أحد بحال .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول ( طبعة الحلبي )  
والحديث رقم ١٧٤٠ ( طبعة المعارف ) . (٢) [ ٦ / الأنعام / ٩٣ ] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة الكذاب - وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد - فقال له مسيلة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم - يعنى رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال<sup>(١)</sup> : وَالْمَصْرِ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله ! فقال : وما هو ؟ فقال : ياوبر ياوبر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أنى أعلم أنك لكذاب ! وقال عبد الله بن سلام<sup>(٢)</sup> : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس ، فكنت فيمن أنجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أششوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قل حسان<sup>(٣)</sup> :

لوم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأنيك بالخبر

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أى الأوثان التى هى جاد

(١) [١٠٣ / العصر / ١ - ٣] .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٤ - باب ما جاء في قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ ( طبعنا ) . (٣) ليس فى ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرر ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أنخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .

فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : ( فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) تأكيد لنفية ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو متوقف معدوم - كذا في الكشف - « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع ، فطرة وتشرعاً ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة ، ليهلك<sup>(١)</sup> من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة « وَلَوْلَا

(١) [ ٨ / الأتقال / ٤٢ ] .

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ « أَى بِتَأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة » لَقَضَى بَيْنَهُمْ « أَى عاجلاً فَيَأْتِيهِمْ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء الحق ، وإهلاك الباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَيَقُولُونَ أَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ )

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أَى من الآيات التى افترحوها تعقلاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتسكّرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة فى الآيات . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أَى هو المختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به . يعنى أن الصارف عن إزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أَى فيما يقضيه الله تعالى فى عاقبة تعنتكم ، فإن العاقبة للمتقين . وقد قال تعالى فى آية أخرى <sup>(١)</sup> ( وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ) . وقال تعالى <sup>(٢)</sup> ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ ) . وقال تعالى <sup>(٣)</sup> ( وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ) أَى فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا لمقترحهم ، لفرط عنادهم . ولا يخفى أن القرآن الكريم لما قام به الدليل القاهر على صدق نبوته ، عليه السلام ، لإعجازه ، كان طلب آية أخرى سواء من مقترحهم - مما لا حاجة له فى صحة نبوته ، وتقرير رسالته . فمثلها يكون مفوضاً إلى مشيئته تعالى ، فترد إلى غيبه ، وسواء أنزلت أولاً ، فقد ثبتت نبوته ، ووضحت رسالته ، صلوات الله عليه .

(١) [ ١٧ / الإمراء / ٥٩ ] . (٢) [ ١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧ ] .

(٣) [ ٦ / الأنعام / ٧ ] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيراً إلى أنهم لا يُذعنون ولو أجيئوا المقترحهم، بما يهدمهم من عدولهم عنه تعالى بمد كشفهم ضررهم ، إلى الإشرak ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم «إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شرهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالخادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلي أمره بعد : «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالسكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . «إِنَّ رُسُلَنَا» أى الذين يحفظون أعمالكم «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» أى مكرهم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة ، فضلاً عن العليم الخبير .

ثم بين تعالى نوعاً من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» أى السفن



« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة المبوب ، موافقة للمرغوب « وَفَرَّحُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوْا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَنُنْجِيَنَّاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى المابدين لك شكراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الناس نعملة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان أو هو الخبر لـ ( بغيكم ) . (على) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر المحذوف ، أى نتمتعكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البنى .

ثم بين تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هى للسببية ، أى اختلط بسببه حتى خالط بمضه (بعضاً) أى الغف بمضه ببعض ، والأول أظهر ، « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلأ والحشيش « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها « وَازِيدَتْ » أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصول من أصله « كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مَثَلٌ فى الوقت القريب « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى ممانيتها .

تنبيه :

قال القاشانى : البغى ضد العدل ، فسكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهىأة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى الرذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة <sup>(١)</sup> . فلهذا قال : ( عَلَى أَنْفُسِكُمْ ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٨ - باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تتمعات طبيعية ، ولذات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسنية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به ، من تربن الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها بيمض الآفات سريعا قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبهما الشقاوة الأبدية ، والمذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث <sup>(١)</sup> : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة ، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهمل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بمض المشايخ يقول : فلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه ، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أى من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مر ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ ( طبعنا ) .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٢٣ - باب البغى ، حديث رقم ٤٢١٢

( طبعنا ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)  
[٢٦] (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ،  
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .  
« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فمرفوا مكر الدنيا والسموات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فمبدوه كأنهم يرونه ، الثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على الثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ) .  
وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبى صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأبى . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد <sup>(٢)</sup> عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ... ) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم <sup>(٣)</sup> .

(١) [٤/النساء/١٧٣] و [٢٤/النور/٣٨] و [٣٥/فاطر/٣٠] و [٤٢/الشورى/٢٦] .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعنا) .

« وَلَا يَرَهُ قُوجُوهُهُمْ قَتَرٌ » أى لا يفسهاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات  
 « وَلَا ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .  
 قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ،  
 فإن فيه تنبيهها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فحذير بهم أن لا يرهق وجوههم  
 قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ،  
 وذلة البعد .  
 وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِّنَ  
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ  
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ  
 ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيهم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست  
 « وُجُوهُهُمْ قِطْعًا » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك  
 لارتكابهم الحياة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الرديئة ، والقصد الإخبار بأبدع تشبيهه  
 عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
 فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والحزى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ثم نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا « أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم » مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تفظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانى : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لا لقطع الأعراض الطبيعية التى توجب تلك الوصل .

ومعنى قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوصل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانى كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل : ينطقها ( الله الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ )<sup>(١)</sup> ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٩] ( فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ )  
 « فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انا « غَافِلِينَ »  
 أى الله يعلم انا ما امرناكم بذلك وما اردنا عبادتكم ابانا .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٠] ( هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ،  
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ )

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام الدهش ، حين قطع المواصله ، وإنكار الشركاء العباده  
 « تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتعاني  
 أثره من قبح وحسن ، ورد وقبول ، كما يختبر الرجل الشئ ويعرفه ، ليكتمه حاله . وهذا  
 كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ بِوَمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) وقوله <sup>(٢)</sup> ( يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ) .  
 « وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى  
 جزاءهم بالعدل والقسط « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من  
 اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبه ، وأمانيهم الباطله . أى ظهر  
 ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيه شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى  
 عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا اراده ، بل تبرأ منهم ، أحوج ما يكونون  
 إلى المعونه . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد  
 عليهم آثم رد .

ثم احقج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٣ ] . (٢) [ ٨٦ / الطارق / ٩ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ )

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا من له التصرف العام فيها « أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سوياً عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَحَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، ( وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شئ ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ )

« فَذَلِكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته نباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقية ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركاً « فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [ ٦٧ / الملك / ٢٣ ] .



الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شئ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ )

« كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه . وقوله ( أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب ، و ( أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) تعليل بمعنى ( لَا يُؤْمِنُونَ ) - أفاده الزمخشري - أى كقوله تعالى <sup>(١)</sup> ( قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ) وقوله تعالى <sup>(٢)</sup> : ( أَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ) قيل : ( الَّذِينَ فَسَقُوا ) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشمار بالعلية ، و ( الفسق ) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصریح بما علم ضمناً من ( الذين فسقوا ) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان .

ثم احتج أيضاً على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَا تَوَفَّكُونَ )

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالاً ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٧١ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ١٩ ] .

في أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة في سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيداناً بظهور برهانها ، للأدلة القائمة عليها سمياً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعناداً لا يلتفت إليه ، وإشعاراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدماً ، يستلزم الاعتراف به الاعتراف بها . ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، ف قيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْمِنُ كُفْرًا » أي فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضاً ، إخماداً لثر إخماد ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ « أي بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل ، وإبقاء العقل ، وتمكين النظر في آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى - « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أي يعبد ويطاع « أَمْ لَا يَهْدِي » أي إلا أن يهديه الله تعالى - نزل منزلة من يعقل لإفحامهم - وقيل معناه : أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمْ لَا يَهْدِي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدي ، أدغمت التاء في الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقي ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقاءهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهذى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهذى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أى شئ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء .  
وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ! ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل لخيلات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد : (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . ذ ( شيئاً ) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ ( يغنى ) ، و ( مِنَ الْحَقِّ ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) <sup>(١)</sup> وعن موسى عليه السلام مثله فقال : ( رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ) <sup>(٢)</sup> . وأمر محمد ﷺ بذلك فقال : ( سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى \* الَّذِي خَلَقَ

(١) [ ٢٦ / الضمراء / ٧٨ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٥٠ ]

غَسَوَى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى <sup>(١)</sup> . وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً ، لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله <sup>(٢)</sup> : (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى <sup>(٣)</sup> : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَمَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) ، وهذا كان كالقصرح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتسكن آلة في اكتساب المعارف والمعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أو لئس شيء من الكيفيات الملموسة . أما الأحوال الروحانية ، والمعارف الإلهية . فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن السكون والفساد . فعلما أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانتة تعالى وحده . والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍ فقد بينا أنها أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق ، ولا في الإرشاد إلى الصديق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيقة هذا الوحي المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزل عليه ، ودلائلها في آيات الله السكونية ، والمثبتة عن عظيم قدرته ، وجليل عنايته ، جهادية بربته ، فقال تعالى :

(١) [ ٨٧ / الأعلى / ٣-١ ] . (٢) [ ١٧ / النمل / ٦٤ ] . (٣) [ ١٦ / النحل / ٧٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ » لامتناع ذلك ؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التي بها عموم الإعجاز « وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصداقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبي ﷺ . و ( تصديق ) منصوب على أنه خبر ( كان ) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقاً للح . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوف ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يطمئن كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله <sup>(١)</sup> ( كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ) كما قال على رضى الله عنه <sup>(٢)</sup> : فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متفقياً عنه الرب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار آخر لما قبلها .

قال أبو السمود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل يقولون . فد ( أم ) منقطعة مقدرة بـ ( بل والهمزة ) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : مقصلة ، ومما دلها

(١) [ ٤ / النساء / ٢٤ ] . (٢) أخرجه الترمذى في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ،

١٤ - باب ما جاء في فضل القرآن .

مقدر . أى يقولون به بعد ما بيننا من حقيقته أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »  
أى إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن  
الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا فى الفظم « وَادْعُوا  
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم  
من خلقه ، الاستعانة به على الإتيان بمثله - إن صدقتم فى أنى اختلقته - فإنه لا يقدر  
عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتخصيص على براءتهم منه تعالى ،  
وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ، فإن  
ذلك مما يؤمهم لو دعوه تعالى لأجابه .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا  
فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل .  
أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجؤوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه  
أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة  
على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم  
عن مفارقة دين آبائهم . كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكامة لا توافق مانشأ  
عليه وألفه ، وإن كانت أضوا من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

في أول وهلة ، واشتأز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشمر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير ( بِمَا كَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ) الإيذان بكال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به - كذا في الكشف وأبي السعود - .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح في الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال في ( تنوير الاقتباس ) : أى عاقبة ما وعدهم في القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانى : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه في مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر في معانيها .  
« فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكهم بسبب تكذيبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ )

[٤١] ( وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ )

[٤٢] ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ )

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به في نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب .  
« وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فغبرا منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أبرزهم فى عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعمون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتهوين : أى أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صاخة دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عمائم فقد البصيرة . أى أحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظن ، أما مع الحق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول - كذا فى الكشف - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتمذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لمدله لا يفعل ذلك . « وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ )  
 « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ )  
 [٤٧] ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

« وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل ذلك « فَإِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوىء الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتركيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى فبلغهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ، فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء للمستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانى فى قوله تعالى ( قُضِيَ بَيْنَهُمْ ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتمذيبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده - انتهى - .  
فالآية على هذا كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين .  
كقوله تعالى <sup>(٢)</sup> : ( وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ) .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )

[٤٩] ( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ )

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبى صلوات الله عليه . قيل : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار المعجز عنه . وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميما . والمعنى لا أملك شيئا ما .  
« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لكن ما شاء الله كائن ، فالاستثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول باباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والسلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وبَسَطَ تقريره .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٥ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٦٩ ] .

وأفاد بمض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما في هذه الآية ، وقوله <sup>(١)</sup> : ( خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) قال : والفسحة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور النابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانى : درجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : ( لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . . ) الآية - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَآذٍ أَيْسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ )

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَنَا كُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيِّنَاتٌ » أى ليلاً « أَوْ نَهَارًا مَآذٍ أَيْسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شئ منه يبرغوب البتة .

لطائف :

الأولى - ( أَرَأَيْتَ ) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى ( أخبرنى ) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أبصرت حاله العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشئ سبباً لمعرفته ، ومعرفته سبباً للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمن كما ذهب إليه أبو حيان - كذا في ( العناية ) .

الثانية - سر إشار ( بياناً ) على ( ليلاً ) مع ظهور التقابل فيه ، الإشمار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدو ، ويتوقع فيه ، ويفتقر فرصة غفلته . وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء ، أو زمان قيلولة . كما في قوله <sup>(١)</sup> ( بَيَّانًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و ( البيات ) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البتوتة .

الثالثة - قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود ( ما ) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعد منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكمًا وسخرية ، فقال في جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرراً بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك انفسى نقعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لي به حق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم - أفاده الطيبي - .

الرابعة - سر إشار ( مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ) على ( مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجماع ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلاً عن أن يستعجله - كذا في ( الكشف ) - .

قال في ( الانتصاف ) : وفي هذا النوع البليغ نكتتان :  
إحداها : وضع الظاهر مكان المضمحل .

(١) [ ٧ / الأعراف / ٤ ] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .  
وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة - والله أعلم - .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

« أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار استعجالهم به بعد إيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة ، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إيمانه حكماً ، تحت القول المأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد ، وإبذناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت القوات - أفاده أبو السمود .

وقوله تعالى : « آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب ( آ لَآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ) ؟ وذلك إنكاراً للتأخير ، وتوبيخاً عليه . وسر وضع ( تستعجلون ) موضع ( تكذبون ) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضاراً لمقاتلهم فهو أبلغ من ( تكذبون ) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكره ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقة ، يدل عليه آية <sup>(١)</sup> : ( وَإِذْ قَالُوا لِلَّهِمْ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً ... ) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعاينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد المضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيئوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فتل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٢ ] .

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجي خيره ، ثم أعلمهم بدم فائدة إيمانهم وتفتد ، وما يوبخون به ، إنكارا للتأخير - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ )

[٥٣] ( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ )  
ثم قيل للذين ظلموا « اى أشركوا » « ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون » فى الآخرة  
« إلا بما كنتم تكسبون » اى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » اى يستخبرونك « أَحَقُّ هُوَ » اى الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » اى بفائتين العذاب . فهو لاحق بكم لا محالة . من ( أعجزه ) الشىء إذا فاته . ويصح كونه من ( أعجزه ) بمعنى وجده عاجزاً . اى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقمه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى - دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية - إنما أمر بالقسم لاسمائهم ، وللجرى على ما هو المألوف فى المحاوره ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كساه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل <sup>(١)</sup> ( إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ \* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ) .

(١) [ ٨٦ / الطارق / ١٤ و ١٣ ] .

الثالثة - لما كانت الفاس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا ببرهان حقيق ، ومنهم من لا ينفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابي<sup>(١)</sup> الذي قدم على النبي ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذي بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورأى من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة - رواه البخاري في أوئل كتاب العلم - .

الرابعة - قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ<sup>(٢)</sup> : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) وفي التغابن<sup>(٣)</sup> ( زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) - انتهى - . وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في ( زاد المعاد ) قال :

وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه - فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت إليهم على أبي بكر بن داود ، فتهياً للحلف ، فقال له القاضي إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمتنى عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره في صحيح البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٦ - باب ما جاء في العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [ ٣٤ / سبأ / ٣ ] . (٣) [ ٦٤ / التغابن / ٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ  
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ « أى بالشرك بالله ، أو التعمدى على الغير ، أو مطلقاً » مَا فِي  
الْأَرْضِ « أى من الأموال » لَافْتَدَتْ بِهِ « أى لجماعته فدية لها من العذاب » وَأَسْرُوا  
النَّدَامَةَ « أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول  
عليها بـ (كل نفس) . والمدول إلى صيغة الجمع ، تهويل الخطب ، بكون الخطب بطريق  
الاجتماع « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » أى عاينوه « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى  
فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ )

[٥٦] (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
يَعْلَمُونَ \* هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله ، وأنه المتيب المعاقب ،  
وما وعده من اثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما  
غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به  
المفترون - كذا في الكشف - .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَأْيَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

«يَأْيَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» أى تذكير لنفوسكم بالوعد والوعيد ، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة فى العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء «وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ» أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والفيل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والتنوير بنور التوحيد «وَهُدًى» أى لنفوسكم من الضلالة «وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات الغيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

«قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ» يعنى القرآن الذى أكرموا به «وَبِرَحْمَتِهِ» يعنى الإسلام «فَبِذَلِكَ» أى فبمجئيهما «فَلْيَفْرَحُوا» أى لا بالأموال الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينتفع بجمعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة فى جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشئ فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدالتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط فى الحقيقة ( فليفرحوا ) و ( بذلك ) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله ( بفضل الله وبرحمته ) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على أنسنة الرسل، لئلا يفترخوا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ » أى ما خلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أى أنزله تعالى رزقاً حلالاً كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم <sup>(١)</sup> : ( هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ ) ( مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ) <sup>(٢)</sup> « قُلْ أَذِنَ لَكُمْ » فى الحكم بالتحريم والتحليل ، فإنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أى تحتلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » فى إنزال الوحي وتعليم الحلال والحرام « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم فى مطالب النفس الخسيسة ، ولا يتبعون ما همدوا إليه .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٣٨ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٣٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التذليل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى غلة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : « وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شئ كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ،

ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولي . وهو فى الأصل ضد العدو ، بمعنى المحب وراز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يقولونه بالطاعة ، كقوله تعالى (٣) : « وَمَنْ يَقُولِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ »

(١) [ ٥ / المائدة / ٥٦ ] .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وبمعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى<sup>(١)</sup> : ( اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) وقوله<sup>(٢)</sup> : ( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ... ) الآية - وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفرع الأكبر ، كما فى قوله تعالى<sup>(٣)</sup> : ( لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف ، كأنه قيل : مَنْ أولئك وما سبب فوزهم بذلك الإكرام ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » ( الْبُشْرَى ) مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات آخر كقوله تعالى<sup>(٤)</sup> : ( الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ... ) إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ) ، وقوله تعالى<sup>(٥)</sup> : ( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للمهد . كقوله سبحانه<sup>(٦)</sup> : ( يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَلِكَ » أى بشراكم ، وهى

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥٧ ] . (٢) [ ٥ / المائدة / ٥٥ ] . (٣) [ ٢١ / الأنبياء / ١٠٣ ] .

(٤) [ ٩ / التوبة / ٢١٣٠ ] . (٥) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] . (٦) [ ٥٧ / الحديد / ١٢ ] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطالب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين تعالى فى كتابه ، ورسوله فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقبس منه جملة يهيم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولي والأولياء . قال رحمه الله : إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال <sup>(١)</sup> : يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب <sup>(٢)</sup> ... الحديث - وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى ولياً لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر <sup>(٣)</sup> : وإنى لأتأر لأوليائى كما يتأر الليث الحرب . أى : آخذ تأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب تأره . وهذا ، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع . والولاية ضد المداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل المداوة البغض والبعد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٦ - باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعنا) . (٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ : (٣) هذا الحديث لم أهتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذي بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجمله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى حجة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى <sup>(١)</sup> (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِمَّنْ خَلَقَ . . . ) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله ، لسكنائهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأنزل تعالى <sup>(٢)</sup> : ( وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدو له ، فكَذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون في الظاهر بالشهادتين ، ويمتقدون في الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقرؤا باطناً برسالاته عليه السلام ، وإنما كان ملصقاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يمتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله <sup>(٣)</sup> ( أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) .

(١) [ ٥ / المائدة / ١٨ ] . (٢) [ ٨ / الأنفال / ٣٤ ] . (٣) [ ١٠ / يونس / ٦٢ و ٦٣ ] .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيهِ ، ووعدهِ ووعيدهِ ، وحلالهِ وحرامهِ . فالحلال ما أحله الله ورسله ، والحرام ما حرمه الله ورسله ، والدين ما شرعه الله ورسله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى . كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ، وكذلك المفتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والسكواكب . وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسول ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس السكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى<sup>(١)</sup> : ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ \* تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ \* يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبیین للرسول ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين ، واقرنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما في الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى عن خان . وفي صحيح مسلم<sup>(٣)</sup> : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله ، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبةتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، فعملوا

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٣ ] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ . ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ ( طبعنا ) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ ( طبعنا ) .



الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ) بمعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً ، لهذه الآية - فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يمدبون حتى يُرْسِلَ إليهم رسولاً ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يقترب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي ﷺ قال <sup>(٢)</sup> : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . ولكن الصبي المميز تصح عباداته ، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء ، لأمر الدنيا . كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إفراؤه ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب . بخلاف الصبي

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٢ - باب لا يرجم المجنون والمجنونة ،

وقال عليّ بن عمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ ( في ترجمة الباب ) .

المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع ، بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون وائياً لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليّ الله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فأتى أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وائياً لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بمض من يدعى الولاية . فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التي هي شرط في ولاية الله . ومن كان يحن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، وبوذي الفرائض ، ويجتنب المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه ، الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فملى هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا وليّ الله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل يمتد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر ؛ وإن كان مجنوناً باطنياً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يمتد فيه أحد أنه ولي الله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

## فصل

وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق في قباء ، وكم من زنديق في عباء . بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون في أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القرءاء) فيدخل فيهم العلماء والنسك . ثم حدث بعد ذلك امم الصوفية والقرءاء واسم (الصوفية) ، نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة ، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقال : صفي ، أو صفائي ، أو صُفي ، ولم يقل صوفي . وصار أيضاً اسم القرءاء يعني به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس : أيما أفضل : مسمى الصوفي

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغنى الشاكر ، أو الفقر الصابر ؟ والصواب في هذا كله ما قاله تبارك وتعالى <sup>(١)</sup> : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) . وفي الصحيح <sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل : أي الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفي السنن <sup>(٣)</sup> عن النبي ﷺ أنه قال : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال <sup>(٤)</sup> : إن الله تعالى أذهب عنكم غيبة <sup>(٥)</sup> الجاهلية ونفخها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقى ، وفاجر شقى .

## فصل

وايس من شرط ولي الله أن يكون ممصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب ببعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن في بعض الحوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان اتبسها عليه ، انقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [ ٤٩ / الحجرات / ١٣ ] . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ،

٨ - قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ ( طبعنا ) .

(٣) لم أهتم إلى هذا الحديث في السنن . ولكن وجدته في مسند الإمام أحمد بالصفحة

رقم ٤١١ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) . (٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب

الأدب ، ١١١ - باب في التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) الغيبة بضم الميم وكسر ها . الكبير والفخر والفتوة . اه قاموس .

وما استكبروها عليه ولم يؤثم النبي ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهداده ، وجعل خطاه مغفورا له . ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبيا ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكيفية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهداده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفي الصحيحين<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ أنه قال : قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في أمتي أحد ، فعمّر منهم . وكان عمر يقول : افتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدث الذي يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ المعصوم . ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة وينظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتاج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرّرون على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة ( طبعنا ) .

مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تمارضوني . فأني من ادعى له أصحابه أنه ولي الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يمارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة - فهو وهمٌ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس . فعمربن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينافزونه ويمرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة . وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علما هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلنا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلنا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى (١) : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويمرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، ومرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحجبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والمقارب والزناير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحجبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بالخلقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلبس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواقع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع منامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن - انتهى ملخصا -

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعة بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره ،  
فرحم الله جامعه ، وجزاء خيراً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسلية للنبي ﷺ عما كان يسمعه من تأمرهم في إيصال مكروه له ، وبجأهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه  
أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر الفناء وترى أعمالهم وأقوالهم ،  
وما يهددونك به كالهباء . فن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد  
ولا حول . فقوله تعالى <sup>(١)</sup> ( إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ) تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، كأنه  
قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك  
أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم ( كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ  
أَنَا وَرُسُلِي ) <sup>(٢)</sup> ( إِنَّا أَنْتَصِرُ رُسُلَنَا ) <sup>(٣)</sup> . وقوله ( هُوَ السَّمِيعُ ) أى لأقوالهم فيك ،  
فيجازيهم ( الْعَلِيمُ ) أى لما ينبغى أن يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلهم تحت ملكته وتصرفه  
وقهره ، لا يقدرُونَ على شيء بغير إذنه ومشيتنه وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ  
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [ ٤ / النساء / ١٣٩ ] . (٢) [ ٥٨ / المجادلة / ٢١ ] . (٣) [ ٤٠ / غافر / ٥١ ] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنّونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفي ( ما ) من قوله ( وما يتبع ) وجهان :  
أحدهما - أنها نافية ، و ( شركاء ) مفعول ( يتبع ) ومفعول ( يدعون ) محذوف لظهوره .  
أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء في الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم ،  
فاقتصر على أحدهما لظهور دلالة على الآخر . ويجوز أن يكون ( شركاء ) مفعول ( يدعون ) ،  
ومفعول ( يتبع ) محذوف ، لانتهامه ، من قوله ( إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ) . أى ما يتبعون  
يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى - أنها استقهامية ، منصوبة بـ ( يتبع ) ، و ( شركاء ) مفعول ( يدعون ) .  
أى : أى شىء يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكوته فما يتبعون من دون  
الله ليس بشىء ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه في ظنهم ، وبتخيلونه في  
خيالهم ، وما هم إلا يُقدِّرون وجود شىء لا وجود له في الحقيقة .  
ثم نبه تعالى على انفراد بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحده سبحانه  
باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ )

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من  
نصيبكم وكلاكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم .  
قيل : الآية من باب الاحتباك ، والتقدير : جعل الليل مظلاً لتسكدوا فيه ، والنهار مبصراً  
لتتحرروا فيه لمصالحكم ، فحذف من كل من الجانبين ما ذكر في الآخر ، اكتفاء بالذكور  
عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازي ، كقوله : \* ما ليل الحب بنائهم \*



« إِنْ فِي ذَلِكَ » أى الجمل المذكور « لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرهما ، سماع تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهِدَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) « قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتمجب من كلمتهم الحقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف يمانه شيء ؟ ومن له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيدان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إمالة تقوى به ، أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدا « إِنْ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهِدَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل لجاهل .

تنبيه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى ( مفتاح دار السعادة ) : إنه سبحانه سعى الحجة العلمية سلطاناً . قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ( إِنْ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهِدَا ) ، يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ، إن هو إلا قول على الله بلا علم . وقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) [ ٥٣ / النجم / ٢٣ ] .

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ) ، بمعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم .  
 وقوله تعالى : ( أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ) ، بمعنى حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف  
 فيه ، وهو قوله : ( مَا أَغْنَىٰ عَنْنَا مَالِيهِ \* هَلَّاكَ عَنْنَا سُلْطَانِيهِ ) ، فقيل : المراد به القدرة  
 والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى  
 انقطعت حجتي وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سعى علم الحجة سلطاناً ،  
 لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم  
 من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب ،  
 وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن . فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد  
 والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه  
 علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها ، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف  
 سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما الضعف  
 حقيقته وسلطانته ، وإما لقهر سلطان اليد والسيوف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة  
 على الباطل قاهرة له - انتهى - .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشري : لما  
 نفى عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك  
 جهل وليس بعلم .

وقال أبو السمود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهي جهالة ، وأن العقائد  
 لا بد لها من برهان قطعى ، وأن التقليد بمنزل من الاعتقاد به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء ، « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلاً . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يترأى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية ، بمعمل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بمزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بمن عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تحتموا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلعلهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكاني ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مددا

طوالاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً أو قيام بالدعوة إلى الله، من رؤيتكم ذلتي بقلة الأموال والأهوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لي « وَتَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ » أي بحججه وبراهينه ، أو تخويفي بمذابه « فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ » أي اعتمدت في دفع ما قصدتوني به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أي شأنكم في إهلاكى « وَشُرَّ كَاءَكُمْ » يعنى آلتهم . وهوتهم بهم ، أو نظراءهم في الشرك . (والواو) بمعنى مع . أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف ، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعاني . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أي مستورا . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفاً تجاهروني به « ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ » أي أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون بي « وَلَا تَنْظُرُونِ » أي ولا تتهملوني .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ )

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أي عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أي جُئلت على عظمتكم ، أي فلا باع لسكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » أي ما تنوابع على التذكير لإعليه تعالى ، يثيبني به ، آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أي المستسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ )

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، خفت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَجَعَلْنَاهُ » أي من الفرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ »

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ « أى خلفاء عن المغرقين وعمار الأرض » وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ « أى منتهى أمرهم . والمراد بـ (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يقد الإندار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإندار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسليية له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تمودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فإلهم بعدها ، كإلهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و(كذبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ » إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَكُهُ يَأْتَانِنَا « يعنى التسع » فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ « أى كفاراً ذوى آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ )

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعنى الآيات المزيحة للشك « قَالُوا » يعنى من فرط التمرد « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ، أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ )

« قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ » أى على وجه لم يترك لكم شبهة ، مقابلتكم الحق ، من أنه سحر ، فحذف المحكى القول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هَذَا » استفهام إنكار من قول موسى لامن قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس ( أَسِحْرٌ هَذَا ) مقولهم ، لأنهم بقوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ - كذا قيل - .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ، والهمزة وسط مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ ( جَاءَكُمْ ) بادى بدء . وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قبل ( إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ ) حكاية لقولهم الذى بقوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر فى ( الاتصاف ) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية - يعنى قراءة آالسحر - على الاستفهام ، فيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى أولاً : ( أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ) حكاية لقولهم ، ويكون

(أَسِحْرٌ هَذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبت من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : \* أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ \* أبلغ فى البت من قوله مخبراً ( أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ ) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : ( إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى ، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسِحْرٌ هَذَا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاية الله تعالى عنهم بمآله ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبت القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بمباراة أخرى . وحكاية القصص المتلوة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا تحمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى .

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام ( أنقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آالسحر ( على قراءة الاستفهام ) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداها واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ( ما جئتم به السحر ) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءةان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الرنخسرى على تأويل القول بالتمعييب ، أو إضمار مفعول ( تقولون ) استشكال وقوع الاستفهام ، محكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تناق بين الأمرين .

قال الناصر : فشد بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق الفسكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق ، لأنه لما استلزم كون الحق سحراً ، كون من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ )

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ )  
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته ، ودفماً لتمرز موسى « ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ )  
« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ » قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ « أى من أصناف السحر . قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشبه لتحل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] ( فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ )

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيتهم وحبالهم إيضاهاوا معجزة موسى بمصاه « قَالَ مُوسَى »



مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ أَيُّهُوَ السَّحَرُ ، لَامَا جِئْتُمْ بِهِ مِمَّا سَمِعْتُمُوهُ سِحْرًا « إِنَّ اللَّهَ سَيُطِيطُهُ »  
أى سيمحقه بالسكاية بمجزتى ، فلا يبقى له أثر « إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى  
بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يثبتته ويقويه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى  
ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ

أَن يَفْتَنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع آخر ،  
أى <sup>(١)</sup> ( فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ) الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ،  
وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرا . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ،  
الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ »  
أَن يَفْتَنَهُمْ « أى يمزقهم » وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ « أى مستكبر » فِي الْأَرْضِ « أى أرض  
مصر » وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ « أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبادعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ

مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى تطمينا لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أمركم فى العصمة مما تخافون ، وبه تقوا ، فإنه كافىكم  
( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ )<sup>(١)</sup> وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى مخلصين  
وجوهمكم له .

قال الفاشانى : جمل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن  
كمل إيمانكم وبقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛  
وإن أريد ( الإسلام ) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملازوماً له . وحينئذ يكون  
معناه : إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن  
كرهت هذا الشجر فاقطعه إن قدرت - انتهى - .

وقال السكرخى : قوله تعالى : ( إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ) أى منقادين لأمره . فقوله :  
( فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو ( إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ )  
شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول .  
ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدماً ، والمتقدم  
يجب أن يكون متأخراً . مثاله : قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت  
زيداً . فيجمع قوله : ( إن دخلت الدار فأنت طالق ) مشروط بقوله ( إن كلمت زيدا ) والمشروط  
متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون  
المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيدا إن دخلت  
الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق . فقوله تعالى :  
( إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ ... ) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين  
بقوله ( إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه :  
إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ،

(١) [ ٦٥ / الطلاق / ٣ ] .

وهو الانقياد لتكاليف الله، وترك التردد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يمدبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالفتنة من الظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ )

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضي : وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً ، لتجواب دعوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ )

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلتكم في شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى في بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة في الدنيا ، والجنة في العقبى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ )

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى في إذهاب عزة فرعون « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً » أى ما يترن به من اللباس والمراكب والحلى « وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عاينك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : ( لِيُضِلُّوا ) متعلق بـ ( آتَيْتَ ) ، وأعيد ( رَبَّنَا ) توكيداً . و ( لَام ) ( لِيُضِلُّوا ) لام العاقبة والصورورة . أى : آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جمل اللام لليلة استدراجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك - توسع في غير متسع ، ونبت عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ في الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال ، لتحقيق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعقوقهم على المحسن بها تمهيداً لقوله : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستمعون بنعمتك على معصيتك وأصل ( الطمس ) محو الأثر والتغيير « وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطمع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى يماينوه وبوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك . وقوله : ( فَلَا يُؤْمِنُوا ) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهي .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجيئ منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام

فَقَالَ<sup>(١)</sup> : ( رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا \* إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِهًا كَفَّارًا ) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شرکه فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ٨٩ ] ( قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ )

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تمجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستمجال ، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه :  
ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءها فى إهلاك فرعون وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٩٠ ] ( وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدَوْا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ )

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمُ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدَوْا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ » رجو النجاة من الفرق « ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، وبأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضر به الله وقومه بالآيات التسمع ، كما

(١) [ ٧١ / نوح / ٢٦ و ٢٧ ] .

تقدم في سورة ( الأعراف ) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم يريدونهم ، فأدركهم وهم نازلون عند البحر ، فهرب الإسرائيليون من مقدمه ، وضحوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بمصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مد موسى يده على البحر ، فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه . ولما أحس بالفرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، ف قيل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَفَرَّغْنَا لَهُ الْكَتَابَ فَاتَّبِعْ رِيسَالَ الْإِسْلَامِ) «وَكَأَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ » أى تؤمن وتسلم لتنجوا من الفرق « وَكَأَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ » أى بالضللال والإضلال ، والظلم والعتو . من قبل الفرق ، « وَكَأَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ » أى بالضللال والإضلال ، والظلم والعتو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أى نخرجك من البحر بجسدك الذى لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجهم من القعر إلى الشاطئ (بالتنجية) التى هى الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ » من الأمم الكافرة « آيَةً » أى عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الخفاجي في ( المنايا ) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية<sup>(١)</sup> : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » . وأما ما وقع في ( القصص ) من صحة إيمانه ، وأن قوله ( ءَامَنَّا بِهِ ) بنوا إسرائيل ( إيمان بموسى عليه السلام - فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طاعتها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في ( تاريخ حلب ) للفاضل الحلبي أنها ليست له ، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي . وقد ردها القزويني ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل خامل الذكر ، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتري بين الناس ، كافي المثل ( خالف تعرف ) وفي ( فتاوى ابن حجر رحمه الله ) أن بعض فقهاءنا كفر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل : إن المراد بفرعون ( في كلامه ) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه - انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله في كتابه ( الفتح المبين في رد اعتراض المتراض على محي الدين ) خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضى الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عاينه من النقل عنه . نعم ، بحث في صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير ، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجات فرعون وإيمانه على أصولين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول - في بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [ ٤٠ / غافر / ٨٥ ] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخى ، كحال المحتضر لا غير ، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروبياً . فالإيمان فى أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا العارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوى لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك فى الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوى لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى - من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلا بد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ) وكما قال <sup>(٢)</sup> : ( قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ) فكذبهم تعالى فى دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى <sup>(٣)</sup> : ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَلَوْ جَاءَ نَهُم كَلِمَةُ رَبِّهِمْ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . فعلمنا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخرى لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الخبر فى شأن فرعون فى ( الفتوحات المكية ) وفى ( الفصوص ) : فالذى ذكره فى ( الفتوحات ) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال فى هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، فخصه له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدون فيها . وأشار إلى كفره فى موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو <sup>(٤)</sup> : أعوذ بك منك ؟ قال : استماد رسول الله ﷺ من مقام

(١) [ البقرة / ١٤ ] . (٢) [ ٤٩ / الحجرات / ١٤ ] . (٣) [ ١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧ ] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ ( طبعنا ) .



الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله <sup>(١)</sup>: (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .  
 بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعياً ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنى يمتطى خلافه ؛ قال تعالى ( فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . ) الآية - فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجنب الإلهى ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : ( وأنا من المسلمين ) ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى ( الفتوحات ) و ( الفصوص ) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوى ، لا عند احتضاره ، والإيمان عند رؤية العذاب الدنيوى لا يمد يأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لا بد من الهلاك الدنيوى إن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لمعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنى بحثاً ، لا جازماً بهما - انتهى ماخصاً - .

(١) [ ٧٩ / النازعات / ٢٤ ] .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إنعمة إخراجهم من عدوهم وإهلاكه ، وإخلاصهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ » أضيف المصنوع إلى الصديق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصديق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى (١) : ( مُذْخَلٍ صِدْقٍ ) و (٢) ( مُخْرَجٍ صِدْقٍ ) إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للغرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهى المن والسلوى فى التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التى تدر لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى فى أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي ، الذى يقولونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، فى النعم عليهم اختلافهم ، قوله تعالى (٣) : ( وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ) . وقوله جل ذكره (٤) ( وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف فى الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من المبطل بالإنباء والإهلاك .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٨٠ ] . (٢) [ ٩٨ / البينة / ٤ ] . (٣) [ ٣ / آل عمران / ١٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ )

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل فاسأل الذين يقرءون الكتاب « أى التوراة » « مِنْ قَبْلِكَ » فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك « لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك . ( إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمتساويين ) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، ليزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ما قص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأخبار بالرسوخ فى العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تعريضاً بالمشركين . أو تهيج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه <sup>(١)</sup> ( وَالْكَينَ لِيُظْمِنَ قَلْبِي ) . وقد روى أنه عليه السلام قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل - أخرجه عبد الرازق وابن جرير <sup>(٢)</sup> عن قتادة - أو الخطاب عليه السلام ، والمراد غيره ، على حد : ( إياك أعنى واسمعى يا جارة ) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٦٠ ] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨

من الجزء الحادى عشر ( طبعة الحابى الثانية ) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعلى فى النفوس . أو الخطاب لكل من يسمع . أى : إن كنت أيها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبيّنا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعد<sup>(١)</sup> : ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ... ) فكانه أشار إلى أن المذكور فى أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعد صراحة وفى الآية تنبيه على أن كل من خالجه شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بمقابلة العلماء المنهين على الحق .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ )  
« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهييج والإلهاب والتنبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شيء ، إن كان لمن تلبس به فعنا تركه ، وإن كان لغيره فعنا الثبات على عدمه ، والا يصدر منه فى المستقبل كما هنا - انتهى - أو يأتى الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ )  
[٩٧] ( وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ )  
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أى قوله الكريم ، وأمره بعدابهم ، كما قال<sup>(٢)</sup> : ( وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَرِمْنًا تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ) .  
« لَا يُؤْمِنُونَ \* وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كذاب آل فرعون وأصراهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

(١) [ ١٠ / يونس / ١٠٤ ] . (٢) [ ٣٢ / السجدة / ١٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ )

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاناة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معابنته ، كما فعل فرعون . وفي هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لىكن قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة في معنى النفي ، لتضمن حرف التخصيص معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الآشوريين ، بانيتها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الآشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية ( يونان ) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتنقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأحضر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرهم قول يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذى أنذروا به ، فقذف الله فى قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلقته ، والتف بمسح ، وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحد طعاماً ولا شراباً ، وألا ترى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا فى صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواسيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذروهم به بنبيهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتى فى ( سورة الصافات ) زيادة فى نبي يونس عما هنا .

### تنبيهات :

الأول - يروى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود ، ونحو هذا . وليس فى التنزيل بيان لهذا ، ولا فى صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ ( كشفنا ) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبي : معنى ( كشفنا عنهم عذاب الخزي ) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى - فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ) .

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] .

وفي الحديث الصحيح<sup>(١)</sup> : عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد ) .

الثالث - أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : ( إِنْ لَّا قَوْمَ يُؤُسُّ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا . . . ) الآية - .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . افرؤوا إن شئتم : ( إِنْ لَّا قَوْمَ يُؤُسُّ . . . ) الآية - .  
وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً ، في قوله تعالى : ( إِنْ لَّا قَوْمَ يُؤُسُّ لَمَّا ءَامَنُوا ) قال عليه السلام - دَعَوْا - كَذَا فِي الْإِكْلِيل - .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ )

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أي بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعًا » أي مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أي : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أي على ما لم يشأ الله منهم « حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى<sup>(٢)</sup> : ( لَيْسَ

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الطب ، ٤٢ - باب من لم يرق ، حديث ١٦٠٥ ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس ( طبعنا ) .  
(٢) [ ٢ / البقرة / ٢٧٢ ] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وفيه تسليمة له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى (١) : (لَمَلَّكَ بِأَخٍ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ بُضِلَ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) (٢)

ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَیَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوقيفه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَیَجْعَلُ الرِّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ انظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكال قدرته . قال السيوطى : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عن لا يؤمن . و ( ما ) استفهامية أو نافية .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٣ ] . (٢) [ ٣٥ / فاطر / ٨ ] .



القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانتَظِرُوا  
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ )

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائمه تعالى فيهم ،  
كما يقال ( أيام العرب ) لوقائمهها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال ( المغرب ) للصلاة  
الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانتَظِرُوا » أى ما هو عاقبتكم ، « إِنِّي مَعَكُمْ  
مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ( ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ )

« ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم  
ثم ننجى رسلنا المرسله إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ »  
أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ )

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس -  
أعنى الناس - مصدراً بحرف التنبيه ، تعميماً للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ  
إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أفضى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيقته أوضح من الشمس في رابعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر . وفي تخصيص القوف بالذكر ، متعلّقاً بهم - ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شيء أشدّ عليهم من الموت . « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى مائلاً عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى - إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكيملك للدين ، فاللام صلة .

الثانية - جملة ( وأن أقم ) عطف على ( أن أكون ) . وجاز حكاية صلة ( أن ) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفى بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلاً مقدراً . أى وأوحى إلى أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون ( أن ) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه لقلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . وردّ بأن الجملة المفسّرة لا يجوز حذفها ، ولا قلّق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه للملاحظة المحكى ، والأمر المذكور معه - كذا فى ( العناية ) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهيج وحث له على عبادة الله تعالى ،

ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة  
 إن عبده « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبد « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبده « فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ »  
 أى الضارين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه <sup>(١)</sup> (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ )  
 « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ  
 يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ،  
 ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم  
 يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجناد الذى لا شعور به . وكذلك  
 إن أراد بخير ، لم يرد أحد ما يريده من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق ،  
 إذا ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، الإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريده  
 يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة  
 إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً  
 بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٣ ] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى ، لاقضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتقبا كآ .

قال أبو السمود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل ( يصيب به ) إظهاراً لسكمال العناية بجانب الخير ، كما ينبغي عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضل الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم . ورواه عن أبي هريرة بمثله .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ )  
« قُلْ » أى لأوائك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » معنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجىء الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فن اختار الهدى واتباع الحق ، فما نفع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ، عليه السلام ، من جلب نفع أو ضرر ، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته - أفاده أبو السمود - .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكل إلى أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْضِبَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ »  
أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَخْضِبَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ  
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ١١ - سُورَةُ هُودٍ

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتميزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهايغي : سميت به لقوله <sup>(١)</sup> : ( إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .  
وهي مكية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : ( فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ ) <sup>(٢)</sup>  
( أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ ) <sup>(٣)</sup> ، ( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ) <sup>(٤)</sup> .  
وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شئت ! قال : قد شيتني ( هود ) و ( الواقعة ) و ( الرسائل ) و ( عم يتساءلون ) و ( إذا الشمس كورت ) .  
ورواه هو والترمذي عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيتني هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

(١) [ ١١ / هود / ٥٦ ] . (٢) [ ١١ / هود / ١٢ ] .

(٣) [ ١١ / هود / ١٧ ] . (٤) [ ١١ / هود / ١١٤ ] .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

«الر» تقدم الكلام على مثلها في أول سورة البقرة فليقتدرك .

«كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ» أى نظمت نظاماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دأمة على حالها لا تبدل ولا تغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة «ثُمَّ فُصِّلْتُ» أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بين ولخص . قيل : (ثم) هنا للتراخي في الحكم ، أى الرتبة أو التراخي بين الإخبارين ، لا للتراخي في الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد ، لا تفك إحداها عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن (ثم) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم في اقتضاها إياه ، كما حكاه في (المغنى) .

«مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغى في النظام الحكمى في تقديرها وتوقيتها وترتيبها - قاله القاشانى - .

قال الزمخشري : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنْ نِ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

« أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشاني : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا تشركوا بالله فى عبادته ، وخصوه بالعبادة .

وقال الزمخشري : « أَلَا » مفعول له ، أى لثلا . أو ( أن ) مفسرة ، لأن فى تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنْ نِ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إني أنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقاب الشرك وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

« وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو المعنى : ثم اخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله <sup>(١)</sup> : ( ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا ) .

« يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله <sup>(٢)</sup> ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويعط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

(١) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] و [ ٤٦ / الأحقاف / ١٣ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] .



قال الفاشاني : ( كبير ) أى شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أى يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى فى صفة قديرته ، فيقهركم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٥] (أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بين تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً ، إثر الإشارة إلى توليهم بقلوبهم ، بقوله : « أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ » أى يزورون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى فى قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما فى ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركى مكة من كراهتهم لاستماع كلامه تعالى ، ما قاله تعالى عن قوم نوح <sup>(١)</sup> (وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ،

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أى ماتعيش به . وإنما جىء بـ (على)

(١) [ ٧١ / نوح / ٧ ] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصُّلب « وَمُسْقَوْدَعَهَا » أى بمدالموت ، أو فى الرحم « كُلُّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .  
ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ )

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دلائل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض - كذا فى الكشف - .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .

روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> عن أبى رزین - واسمه لقيط بن عامر العقيلي - قال : قلت يا رسول الله ! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع ( طبعة الحلبي ) .

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذی<sup>(١)</sup> وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقي في كتاب (الأسماء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيته مقيدا كذلك ، ومنه السحاب الرقيق ، أي فوق سحاب ، مدبراً له ، وعالياً عليه . كما قال تعالى<sup>(٢)</sup> : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) . يعني مَنْ فوق السماء . وقوله . (ما فوقه هواء) أي ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله (وما تحته هواء) أي ما تحت السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عَمِيَ عن الخلق ، فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق ، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أي : ليس فوق العمى ، الذي هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصاً .

وقال ابن الأثير : الماء في اللغة : السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفي الحديث حذف ، أي أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفطن .

وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء !

قال الأزهري : فنحن نؤمن به ولا نكف صفته .

وقوله تعالى : «لِيَمْلُؤْكُمْ أَثْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أي أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أي : خلقهن الحكمة بالغة ، وهي أن يجعلهن مساكين لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ - حدثنا أحمد

ابن منيع . (٢) [ ٦٧ / الملك / ١٦ ] .

فيمبدوه وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشيء معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا - بمعاملة المختبر مع المختبر ، ليعلم حاله ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، ( ليعلمكم ) موضع ( ليعلمكم ) . ويصح أن يكون مجازاً مرسل ، لتلازم العلم والاختبار . أى : خلق ذلك ليعلم ، أى . ليظهر تعلق علمه بالأزلى بذلك .

قال القاشاني : جمل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أى : خلقناهم لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أبتكم أحسن عملاً ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم - انتهى - .

ونحو هذه الآية قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ) . وقوله <sup>(٢)</sup> : ( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ \* فَقَالَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ) . وقوله سبحانه <sup>(٣)</sup> : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .

وقوله تعالى « وَلَئِنْ قُلْتَ » أى لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أى مُحْيَوْنَ « مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا الْقَوْلُ بِالْبَعْثِ ، أو القرآن المتضمن لذكره » إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى مثله في الخديعة والبطلان .

(١) [ ٣٨ / ص / ٢٧ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ١١٥ و ١١٦ ] .

(٣) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ )  
 « وَلَيْنَ آخَرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » أى جماعة من الأوقات محصورة .

والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا بيدر ، أو هلاك المستهزئين الذين ماتوا قبل بذر « لِيَقُولُنَّ » أى استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أى عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أى دار ونزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى العذاب الذى كانوا به يستمجلون .

لطيفة :

( الأمة ) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة . فيراد بها الأمم ، كما هنا وقوله في يوسف <sup>(١)</sup> : ( وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) . والإمام المقتدى به ، كقوله <sup>(٢)</sup> : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ) . والملة والدين كآية <sup>(٣)</sup> : ( إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ) . والجماعة كآية <sup>(٤)</sup> : ( وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ) . وقوله تعالى <sup>(٥)</sup> : ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ) - أفاده ابن كثير - .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ١٢٠ ] .

(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ و ٢٢ ] . (٤) [ ٢٨ / القصص / ٢٣ ] .

(٥) [ ١٦ / النحل / ٣٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ) « وَلَيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ » أى قنوط عن عودها ، قنوط رجاء من فضله تعالى ، من غير صبر ولا تسليم لقضائه ، « كَفُورٌ » عظيم الكفران لما سلف له من الثقل في نعمة الله ، كأنه لم ير خيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

« وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب التى ساءتني « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أُنس بطر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، قد شمله الفرح والفخر عن الشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء ، إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقها ولاحقها « أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم بتلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيه :

قال القاسانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة ، ولا بسميه

وتصرفه في السكب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينسأ فينسأ الله بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره فإن أناء رحمة من حمة أو نعمة ، شكره أولاً برؤية ذلك منه . ونهود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالغاب ، ثم بالجوارح باستعمالها في مرضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستريداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى (١) : ( اِنَّ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ثم إن نزعها منه . فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد الشفيق في تربيته إياه ، بل أرأف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يملكه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القاطن من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأن سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ) استثناء من ( الإنسان ) أي هذا النوع يؤوس ككفور ، فرح فخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنعماء . الشدة والرخاء ، كما قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيعان ، لا أبالي أيهما أمتطى . انتهى .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ )

« فَلَمَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أى بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أى مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التى لا تنكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتعادياً فى العناد على وجه الافتراح « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أى هلاً أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماء أن الرسول متبوع ، لا بد له من الإتفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإقواء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أى ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الافتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكيف أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

لطائف :

الأولى - قال القاشانى : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعناد والاستهزاء ، ضاق صدورهم ، ولم ينبسط لكلامهم ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبول المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كروباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيج قوته ونشاطه بقوله : ( إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى القاعدتين : إما رفع الحجاب بأن ينبجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كل الهداية إليهم .



الثانية - لا يخفى أن ( لعل ) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع ما لا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهيبه على دأيمته .

وقيل : ( لعل ) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالمعنى : لا نترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث <sup>(١)</sup> : لعلنا أعجلناك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشآت قائمة به - تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملازمة بمعناه كما هنا . فالمعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا فى العناية - .

الثالثة - إنما عدل عن ( ضيق ) الصفة المشبهة إلى ( ضائق ) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرأ . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدث تحول إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمّا اللثيمُ فسّامينُ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها

وظاهر كلام أبى حيان أنه مقيس . وقيل إنه لمشابهة ( تارك ) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة - كذا فى العناية - .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ٤ - كتاب الوضوء ، ٣٤ - باب من لم ير الوضوء إلا من

المخرجين ، حديث ١٤٤ - عن أبى سعيد الخدرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى ( أم ) وجهان منقطعة مقدرة بـ ( بل ) والهمزة الإنكارية ( أى : بل أيقولون . ومتصلة والتقدير : أيكثفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا » أى للاستعانة « مَنْ اسْتَطَعْتُمْ » أى من الإنسان والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » متعلق بـ ( ادعوا ) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ )

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بنبيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحجة القاطعة ؟

### لطائف :

الأولى - قيل : تُحَدِّثُوا أولاً بعشر سور، فلما عجزوا تُحَدِّثُوا بسورة، وذهب المبرد إلى أن الأمر بالعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولاً هو التحدى بسورة مثله فى البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن النغيات والأحكام وأحوالها ، وهى الأنواع التسعة المنظومة فى قول بعضهم :

ألا إنما القرآنُ تسعةُ أحرفٍ      سأنبئكمها فى بيت شعر بلاملئ  
حلال ، حرامٌ ، مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ      بِشِيرٍ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلٌ

فلما عجزوا عن ذلك ، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، ويشهد له توصيفها بـ ( مفتريات ) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد ، وإبطال الشرك ، فتمين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهى السورة الفذة . والتحدى بعشر وقع بعد تمنعهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غـير القرآن ، لزعيم أنه مفترى . فقامه يناسبه التكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم ، فلا يعسر الإتيان بكثير مثله - كذا فى العناية - .

الثانية : ضمير ( لكم ) للنبي ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما فى قول من قال :

\* وإن شئت حرمت النساء سواكم \*

أولهُ وللمؤمنين ، لأنهم أتباعه فى الأمر بالتحدى ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه ، عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه فى الجهاد . وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان ، والطمأنينة فى الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : ( فاعلموا . . . ) الخ . وجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهته عليه السلام ، داخل تحت الأمر بالتحدى ، والضمير فى ( لم يستجيبوا ) ( من استطعمتم ) أى : فإن لم يستجب لكم سائر من تجارون إليهم فى مهماتكم إلى

المعاونة ، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القوى والقُدْر -  
كذا في أبي السمود - .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة - وهم الكفار - بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ )

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ )

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا » أى وحبط في الآخرة ما صنعوه ، أى لم يكن لهم ثواب عليه . وجوز تعلق الظرف بـ ( صنعوا ) والضمير للدنيا ، كما عاد عليه في قوله <sup>(١)</sup> : ( نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) ؛ ( وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى كان عملهم في نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لغرض صحيح .

ونظير هذه الآية قوله تعالى <sup>(٢)</sup> : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا \* وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا \* كَلَّا نُمَدِّهُوْلَاءَ وَهُوْلَاءَ مِنْ تَطَائُرِ رِبِّكَ

(١) [ ١١ / هود / ١٥ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٨ - ٢٠ ] .

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . وقوله تعالى<sup>(١)</sup> : ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ) .  
لطيفة :

في إعراب « باطل » وجهان :

الأول - كونه خبراً مقدماً ، و ( ما كانوا ) مبتدأ مؤخرًا : و ( ما ) مصدرية أو موصولة ،  
والكلام من عطف الجمل .

والثاني - كونه عطفاً على الأخبار قبله أي : أولئك باطل ما كانوا يعملون . و ( مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ) فاعل بـ ( باطل ) ورجح هذا بقراءة زيد بن علي رضي الله عنهما : ( وَبَطَلَ )  
ماضياً معطوفاً على ( حَبِطَ ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ  
مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ  
فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَالْكَافِرُ  
أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ )

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ » أي برهان نير ، عظيم الشأن ، يدل على حقيقة  
ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أي يتبعه « شَاهِدٌ مِنْهُ » أي من القرآن  
نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت ( البينة ) أيضاً بالإسلام ،  
سماء بينة لغاية ظهوره ، إذ هو دين الفطرة ، قبل تدنيسها برجس الوثنية و ( الشاهد ) بالقرآن ،

(١) [ ٤٢ / الشورى / ٢٠ ] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَى » وهو التوراة . أى :  
ويتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى ، مقررًا لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَامًا » أى  
مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم  
الشرائع . « أُولَئِكَ » أى من كان على بينة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ،  
« وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامهم من المعتزبين على رسول  
الله صلوات الله عليه ﷺ « فَإِنَّا نَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من  
الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

### لطائف :

الأولى : ( مَنْ ) فى قوله تعالى : ( أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ) مبتدأ حذف خبره ،  
لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على  
بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السمود .  
وفى ( شرح الكشاف ) أن التقدير : آمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ،  
فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقرّبونهم .  
والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من  
نحو قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ ) .

الثانية : قرئ ( كتاب موسى ) بالنصب عطفاً على الضمير فى ( يتلوه ) أى يتلو القرآن  
شاهد ممن كان على بينة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،  
وشهادتهم على أنه حق لا مفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و( يتلو ) من التلاوة ، فتكون  
الآية كقوله تعالى <sup>(٢)</sup> . ( وَشَهِدَ شَهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) - والله أعلم - .

(١) [ ٣٢ / السجدة / ١٨ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ١٠ ] .

الثالثة - ( الأحزاب ) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق ( الأحزاب ) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبي قبله . وهو إطلاق شرعي . وعليه حمل الأكثر الآية ، لكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن سميد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار . قال سميد : كنت لا أسمع بحديث من النبي ﷺ على وجهه ، إلا وجدت مصداقه في القرآن ، فبلغنى هذا الحديث ، فجعلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية ( وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ) قال : الملل كلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقوله للملائكة ( بَنَاتُ اللَّهِ ) ، وللأصنام ( شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أى يساقون إليه سوق العبيد المفتريين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبیین والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحقيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفترى ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، ٧٠ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ ( طبعنا ) .

فإن من يعلم حال من يفتري على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ في يونس في قوله تعالى <sup>(١)</sup> :  
(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)  
« الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كل من يقدر على صدّه  
« وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلبونها مموّجة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ . يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)  
« أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم فى الدنيا ،  
« وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى ينعونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ  
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصاتهم عن الحق ، وبفضهم له ، « وَمَا كَانُوا  
يُبْصِرُونَ » لتعميهم عن آيات الله ، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله <sup>(٢)</sup> : (وَقَالُوا  
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى <sup>(٣)</sup> : (الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَذَابٌ أَلَدٌ فَوْقَ الْعَذَابِ . . . ) الآية .

(١) [ ٢٠ / طه / ٦٩ ] . (٢) [ ٦٧ / الملك / ١٠ ] .

(٣) [ ١٦ / النحل / ٨٨ ] .



القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها ، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المالِ عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاق فى غيرِ واجبٍ  
« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تجِدْهم شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقاً ، أو لا محالة « أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خشموا له وحده ،  
« أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ » مَثَلُ الْكَاْفِرِ  
« وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالاً  
وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهنهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> ( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ) ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلات الأرض من شركهم وشروهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بآنى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إني لكم نذير مبين ، آيتن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ )

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » ( الباء ) مقدره هنا للتعبدية . و ( لا ) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهى عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ » أى مؤلم فى الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ )

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا تَرَاكَ إِلَّا

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٢٤ ] .

بَشَرًا مِثْلَنَا » أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليثون بأمور الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ما زارك إلا بشراً مثلنا ، لكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، التحير بالهوى ، الذى هو عقل المماش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلقين على مراتب الاستعدادات والسمكالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يملئه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها .

« وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُدْنُوا مِنْنا ؛ إِذِ الْمُرْتَبَةِ الرَّفْعَةُ عَنْهُمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ ، لَيْسَ إِلَّا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ( يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ) .

وقوله تعالى : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى بديهية الرأى ، لأنهم ضماف العقول ، عاجزون عن كسب المماش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجاجهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة المعنوية ، لقصر تصرفه على كسب المماش ، والوقوف على حده . وأما أتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب همم بعيدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزوا عقولهم واستحقروها .

تنبية :

( بَادَى ) قرأ أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أول وهلة .

وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدايبدو ، كملا يعلو . والمعنى : ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تَوَلَّى لعرف باطنه ، وهوى المعنى كالأول . وعلى كليهما ، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما ( نراك ) أو ( اتبعك ) قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدهما - أن المتبعين أراءه ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثاني - أنهم مع ذلك لم يترقوا في اتّباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به - انتهى - .

أى وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأذنون ، ولو كانوا أغنياء . وفي الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى<sup>(١)</sup> : ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ) . ولما سأل<sup>(٢)</sup> هرقل ، ملك الروم ، أباسفيان عن نعوت النبي ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثاني : فإن البدار لاعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضع فلا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتّباعه حالئذ لكل ذى فطنة ، ولا يتردد إلا غيـ<sup>٢</sup> أو عيـ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ » أى تقدم يؤهلكم للنبوّة . واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشري : كان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يمتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زلّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يفضله . فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا مرغبين في طلب الآخرة ،

(١) [ ٤٣ / الزخرف / ٢٣ ] . (٢) انظر صحيح البخارى : ١ - كتاب بدء

الوحي ، ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصفرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها . فما أبعد حالهم عليهم السلام من الانصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضمة عند الله !  
وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أى فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْ مَّا هُمْ بِلَهَا كَارِهُونَ )

قَالَ « أى نوح » يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ « أى أخبرونى » « إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى برهان « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً » أى هداية خاصة كشفية « مِّنْ عِندِهِ » أى فوق طور العقل من العلوم الدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيتْ عَلَيْكُمْ » أى لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليفة عن الحقيقة « أَنُلْزِمُكُمْ مَّا هُمْ بِلَهَا كَارِهُونَ » يعنى أنكرهم على قبولها ، ونفسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكروهونها ، ولا تختارونها ، ( لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ )<sup>(١)</sup> ، فالاستفهام للإنكار ، أى لا تقدر على ذلك ، والذي فى وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقوها فزكوا نفوسكم ، واتركوا إنكاركم . وفى طى جوابه عليه السلام حث على تدبرها ، ورد عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَالْكِنَىٰ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ )  
« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ »

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥٦ ] .

الله « قال القاشاني : أى الغرض عندكم من كل أمر ، محصورٌ في حصول المماش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنهبوا لغرضي ، وأنتم عقلاء بزعمتكم .

ثم لما بين أن لوجه لكرهه دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القرية والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مائماً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكايهم ، وهذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته في كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء لقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ، لذهاب عقولكم في الدنيا . أو تسفون وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ) ؟ ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ٣٠ ] ( وَيَأْقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ )

« وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردهم تمزكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنى عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٣ ] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تتمظون فتستزجروا عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن ، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاه ، متملقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما طلبوا طرد من عدوه من الأراذل . وهي نظير قوله تعالى <sup>(١)</sup> : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوتر بالوحى والرسالة فلا يدعى ما ليس له ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ )

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى رزقه وأمواله « وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » أى أنا أدعى الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب ، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلى بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ » أى تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا » أى فى الدنيا والآخرة ، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندى ما عند الله ، لا المال « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أى من الخير ، منى ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه -

(١) [ ٦ / الأنعام / ٥٢ ] .

قاله القاشاني - وحل غيره هذا على تفويض مافى أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة . « إني إذا » أى إذا قلت ذلك « لمن الظالمين » أى لبخس حقهم ، وحط قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمان القلبي ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أى أطلته ، أو أتيت به بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ » يعنى أنه ليس موكلواً إلى ، وإنما يقولاه الله الذى كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بالهرب أو بدفعه .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »



أى أى نبيء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمركم « هُوَ رَبُّكُمْ » أى مالك أمركم « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ )  
 « أَمْ يَقُولُونَ » أى قوم نوح « افْتَرَاهُ » أى النصح ، فهو من نعمة نبأ نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة، يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لقباً نوح ، جىء به معترضاً فى تضاعيفه ، تحقيقاً له ، وتأكيذاً لوقوعه ، وتشويقاً للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقى منها الأهم وهو نتيجته .  
 « قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي » أى إثم كسب ذنبى « وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ )

« وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ » أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه بإهم  
 « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ » أى لا تحزن « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم، وحان وقت الانتقام منهم . وقيل :  
 المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلاً لشفقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ )  
 « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ » أى للتخلص من عذابهم « بِأَعْيُنِنَا » أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عزّ وجلّ حفاظاً وحراساً ، يكلأونه بأعينهم من التعمد من الكفرة ، ومن الزيف في الصنعة « وَوَحِينَا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعلمينا وإلهامنا . قيل : لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع العذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى <sup>(١)</sup> « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة . وقيل : تقديره وأخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجعله محلاً للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، يدوم معه الخزي .  
وقوله تعالى :

(١) [ ١١ / هود / ٧٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومه . و ( حَتَّىٰ » غاية لقوله ( وَيَصْنَعُ ) وما

بينهما حال من الضمير فيه ، و ( سَخِرُوا مِنْهُ ) جواب ( كَلَّمَا ) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى

وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو السكانون

الذى يخبر فيه ، أو تنوير الفجر - أقوال حكاهم اللغويون والمفسرون - زاد بعضهم احتمال

أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : ( حَمَى الوطيس ) والوطيس التنور ،

وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها

وأبلغها ، وإن حاول الرازى رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهيار الماء ونبوعه .

وهذا الإيجاز في مجازة الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى <sup>(١)</sup> : ( فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

مُنْهَمِرٍ \* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ... ) الآيات - ومما يؤيده

شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصود على ناحية

الأرض فقط . وجلى أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم

والطيور وما يدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكراً وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ ( كَلِّ ) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن مفعول ( احْمِلْ ) ( اثْنَيْنِ ) و ( مِنْ ) حال .

والثانى - أن ( مِنْ ) زائدة ، والمفعول ( كَلِّ ) ، و ( اثْنَيْنِ ) توكيد . ويقرأ مِنْ

كُلٌّ (بالتنوين ، ذ ( زَوْجَيْنِ ) مفعول ( اَحْمِلْ ) ، و ( اَنْتَيْنِ ) توكيده ، و ( مِنْ ) متعلقة بـ ( اَحْمِلْ ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أى من يتصل بك فى دينك وسيرتك من أقاربك ، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أى وجب عليه « الْقَوْلُ » أى بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أى احملة معك فيها . قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم الاستثناء المذكور ، وإبشار صيغة الإفراد فى ( ءَامَنَ ) محافظة على لفظ ( مَنْ ) للإذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله ، عزّ قائلًا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) « وَقَالَ » أى نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أى السفينة « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » قال الزمخشريّ : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين . فالكلام الواحد أن يتصل ( بِسْمِ اللَّهِ ) بـ ( ارْكَبُوا ) حالاً من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إملاًن المجرى والرسي للوقت ، وإما لأنهما مصدران ، كالإجراء والإرسال ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : ( خفوق النجم ) و ( مقدم الحاج ) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما فى ( بِسْمِ اللَّهِ ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون ( بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أى : بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله (١) : ثم اسم السلام عليكما . ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : ( جملة

(١) تمام البيت :

إلى الحول ، ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن بَيْتِكَ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ  
وقائله لمبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضبة ) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تكون في موضع الحال من ضمير ( الفلك ) كآيه قيل : اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله <sup>(١)</sup> : ( فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ - انتهى - .

### تنبيهات :

الأول - قرأ الإخوان - حمزة والكسائي وحفص - ( مَجْرَاهَا ) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم ( مرساها ) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفى ( مَرْسَاهَا ) بفتح الميم أيضاً . وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وباء بمدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجرورى المحل ، صفتين لله .

الثاني - ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التي للتأنيث ، أو للإلحاق ، أمالهُ حمزة والكسائي وأبو عمرو ، ووافقهم حفص في إمالة ( مَجْرَاهَا ) هنا ، ولم يُعْمَلْ غيره .

الثالث - أخذ بعضهم من الوجه الأول في ( بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا ) أعنى تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجرى والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى في سورة المؤمنون <sup>(٢)</sup> : ( فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ) . وقوله تعالى <sup>(٣)</sup> : ( وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرُونَ كِبُورًا \* لَتَسْتَغْوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا ) ( الآية - وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٧٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٢٨ و ٢٩ ] .

(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣ ] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنجاء ، أى لولا مغفرته ورحمته لفرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو لتعليل لـ ( اركبوا ) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ )

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ » متصل بحذوف ، دل عليه ( اركبوا ) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفتحت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشاخنة بخمسة عشر ذراعاً ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .  
« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ » أى فى متحنى عن أبيه « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانزال ، الهالكين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( قَالَ سَأَوْى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ )

« قَالَ سَأَوْى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو ( إلا ) منقطعة ، أى لكن من رحمه فهو المعصوم .  
قال الفاسر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ،  
ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران  
من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لكن المرحوم يعصم ، على الأول . ولكن  
الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزخشرى خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف  
المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفي التمريض بعدم عصمة الجبل ،  
وبالمثبت التمريض بعصمة السفينة . والكل جائز وبعضها أقرب من بعض - انتهى - .  
« وَحَالِ يَدَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلاً بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه  
فوقه « فَكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمُغْرَقِينَ » أى الهالكين بالغرق .  
وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ،  
غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد ( كان ) دون ( صار ) مبالغة فى كونه منهم - أفاده  
أبو السمود - . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ( وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ  
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ  
عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق  
من كفر بالله ديار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر  
السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بإنجاء من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتنافص وتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال ، استقرت السفينة على الجودي ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .  
و (بُعْدًا) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدوا بعداً . يقال : بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء كـ (جَدْعًا) و (تَعَسًّا) و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ (قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول .  
والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلميته للهلاك ، ولتذكّر ما سبق من قوله : (وَلَا تُحْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ) .

#### تنبيه :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوّت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسمهم مجالاً في مضمار معارفها ، الإمام السكاكي ، فقد أطال وأطاب في كتابه (الفتاح) وتلطف في التبيان بألف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الأبواب بعرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعميد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جاريّاً على قوانين اللغة ، أدور على أسنة الفصحاء ، أكثر في الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك .  
ثم إن ساعدك الذوق ، أدركت منهما ما قد أدرك من تحدّوايها ، وهى قوله ، علت كلمته : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ . . . إلى . . . الظَّالِمِينَ) .



والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وها مرجعاً البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نَرُدَّ ما انقجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نفيض الماء النازل من السماء ففاض ، وأن نقضى أمر نوح ، وهو إنجازه ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوى السفينة على الجودي فاستوت . وأبقينا الظلمة غرقى بنى السكلام على تشبيه المراد <sup>(١)</sup> بالأمور الذى لا يتأتى منه ، لسكال هيئته ، المصيان ، وتشبيه تكوين المراد <sup>(٢)</sup> بالأمر الجزم النافذ فى تكوين المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام المظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً ، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فمظمت مهابته فى نفوسهم ، وضربت سرادقها فى أفنية ضائرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً . لا تَلَقَّى لإشارته

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما فى لفظ ( المشترك ) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالأمور الذى لا يتأتى منه ، لسكال خوفه من الأمر ، المصيان ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . ١٠ هـ ( سيد ) قدس سره .

(٢) أراد بلفظ ( المراد ) هنا معناه الظاهر . أعنى ما أريد من المراد منه ، وهو الذى عبر عنه بالبلغ والإفلاخ . ولتخالف معنى ( المراد ) فى الموضعين أعاد الظاهر ، وهذا التشبيه الثانى مصحح لا يراد صيغة الأمر . ١٠ هـ ( سيد ) .

بغير الإمضاء والالتقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هذا<sup>(١)</sup> نظم الكلام ، فقال جل وعلا : ( وَقِيلَ ) ، على سبيل المجاز - أى المرسل - عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجهد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى : يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور . ثم استعار لغفور<sup>(٢)</sup> الماء في الأرض البلع ، الذى هو إعمال الجاذبة في المطعوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار ، تقوى الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة ( ابْلَغِي ) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم<sup>(٣)</sup> ذكره ، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء . ثم قال : ( مَاءَكِ ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك . واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب فى الأمر قائلاً : ( أَقْلِمِي ) ، لئلا ما تقدم فى ( ابْلَغِي ) . ثم قال : ( وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا ) ، فلم يصرح بمن غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوى السفينة . وقال : ( بُعْدًا ) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء فى صدر الآية ، سلوكاً فى كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، أن<sup>(٤)</sup> تلك الأمور العظام لا تقاى إلا من ذى قدرة

(١) معنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : ( ثم استعار لغفور الماء فى الأرض البلع ) ، جملة فى الكشف مستعارة للنشف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن النشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء . وهذا من دقائق الزخشرى عليه الرحمة .

(٣) معنى الثانى وهو تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم .

(٤) بيان لسبيل الكناية أو تعليل لـ ( سلوكا ) بتقدير اللام .

لا يُكْتَنه . قَهَّارٌ لا يَفَالِبُ . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره - جلت عظمته -  
قائلٌ يا أرض ويا سماء ، ولا غائض مثل ما غاض ، ولا قاضى مثل ذلك الأمر الهائل ،  
وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها ، بتسوية غيره وإقراره . ثم ختم الكلام بالتمريض<sup>(١)</sup> ،  
تقبيلها لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ، ظلماً لأنفسهم لا غير ، ختمَ إظهار ، لكان  
السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامه الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت  
إلا لظلمهم<sup>(٢)</sup> .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم  
وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير ( يا ) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر  
فى الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن  
العزة والجبروت ، وهو تميميد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرض ! بالكسر  
لإمداد التهاون<sup>(٣)</sup> ، ولم يقل : يا أيها الأرض ! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما فى ( أيها )  
من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ ( الأرض ) دون سائر أسمائها ، لكونه  
أخف وأدور<sup>(٤)</sup> . واختير لفظ السماء<sup>(٥)</sup> لمثل ما تقدم فى الأرض ، مع قصد المطابقة<sup>(٦)</sup> .  
واختير لفظ ( ابلى ) على ( ابتلى ) لكونه أخصر ، ولجئ خط التجانس بينه وبين ( أقلى )  
أوفر . وقيل : ( ماءك ) بالإفراد دون الجمع ، لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها

(١) أى التمريض بدعاء الهلاك على قوم نوح . اهـ .

(٢) أى كما يشمر به تمليق الحكم بوصف يناسبه . اهـ .

(٣) أى لأن إضافة الأرض إلى نفسه تقتضى تشريفاً للأرض ، وتكريماً لها ، فتركها

إمداداً للتهاون . اهـ ( سيد ) . (٤) أى فى الاستعمال من الفراء والمقلة . اهـ . ( سيد ) .

(٥) أى من الخضراء والمظلة . اهـ .

(٦) لأنها بهذا الاسم أشهر مقابلة للأرض . اهـ . ( سيد ) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في أفراد ( الأرض ) و ( السماء ) . وإنما لم يقل : ( ابلى ) بدون المفعول ، أنَّ لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والقتال والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع ( أَقْلِمِ ) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو - أى الاختصار - الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلى ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلمي فأقلمت . واختير ( غِيضٌ ) على ( غِيض ) المشدد لكونه أخصر ، وقيل ( الماء ) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل : سويت على الجودى ، بمعنى أفرقت ، على نحو : ( قيل ) و ( غِيض ) و ( قضى ) فى البناء للمفعول ، اعتباراً<sup>(١)</sup> لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله ( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ ) مع قصد الاختصار فى اللفظ . ثم قيل : ( بُعْدًا لِلْقَوْمِ ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد<sup>(٢)</sup> مع الاختصار ، وهو نزول ( بُعْدًا ) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهى استعمال اللام مع ( بُعْدًا ) الدال على معنى أن البعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلام .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل : ( يَا أَرْضُ ابْلَعِي ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِمِي ! ) دون أن يقال : ابلى يا أرض ، وأقلمي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فىمن كان مأموراً حقيقة ، من تقديم التنبيه ، ليكن الأمر الوارد عقبه فى نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أى اعتبار الكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على

صيغة المبني للفاعل . ١ هـ ( سيد ) .

(٢) أى لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح <sup>(١)</sup> . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لا ابتداء الطوفان منها <sup>(٢)</sup> ، ونزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . ألا ترى أصل الكلام ( قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، ويا سماء ألقى عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، ففاض ) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : ( وَفُضِيَ الْأَمْرُ ) ، أى أنجز الموعد من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله ( وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى ) <sup>(٣)</sup> . ثم ختمت القصة بما ختمت <sup>(٤)</sup> . هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة <sup>(٥)</sup> .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فالألفاظ على ما نرى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات <sup>(٦)</sup> ، سلسلة على الأسلات <sup>(٧)</sup> ، كلٌّ منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

(١) أى ترشيح المكنية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد) . (٢) أى من الأرض ، حيث فارتفورها انتهى . (٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى . (٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى (٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى (سيد) . (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان . (٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

في الرقة . والله در شأن التنزيل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد السكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان ، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له في مظان التأويل ماء ورونقه؛ وَلَكَمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها ورونتها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها في مأخذ مردودة ، وحلوا على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآي من مأخذهم في عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - انتهى كلام السكاكي - .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ(النهر) للطائفها ، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع . وأف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورود في تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهي : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتباس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، والإيجاز ، والتسليم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ )

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة ، وتعطف الرحم والقربة ، على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعذك يا نجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القربة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : ( إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ )

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود بإنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً ، لأن مدار الأهلية هو القربة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر . قال القاشانى : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القربة الدينية ، واللحمة المنوية ، والاتصال الحقيقى لا الصورى . كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ألا وإن ولى محمد ، من أطاع الله ، وإن بعدت لجمته . ألا وإن عدو محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لجمته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصالحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والغى ، كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فمن لا صلاح له ، لا نجاة له . وهذا سر إشار ( غَيْرُ صَالِحٍ ) على ( عمل فاسد ) .

وقد قرأ يعقوب والكسائي ( عَمِلَ ) بلفظ الماضي ، والباقون بلفظ المصدر ، بجعله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بينا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تلتمس منى ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهى إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً ، إما لأنه لا يهم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياى ما لم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام ، عند ذلك التأديب الإلهى ، والعتاب الربانى ، وتعوذ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ )

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أى ما فرط منى « وَتَرْحَمْنِي » أى بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاب عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابنه المذكور أصله . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امرأته ، ربيبه . وأيده بعضهم بقراءة على : ( ونادى نوح ابنها ) - والله أعلم - . ثم أنبأ تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرسى السفينة على الجودى ، بقوله :



القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ )

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَمٌ » أى ومنهم أمة « سَنُمَتِّعُهُمْ » أى فى الحياة الدنيا لاحتياجهم بها « ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثر على أنه عم الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جاح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقي الدين المقرئى فى ( الخطط ) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد ( كيومرت ) الذى هو عندهم ( الإنسان الأول ) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح <sup>(١)</sup> : ( وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ) اه .

(١) [ ٣٧ / الصفات / ٧٧ ] .

ونحوه في الكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ، ذهب بممران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة - انتهى - .

قال بعضهم ( في تقرير عموم الطوفان ، مبرهنًا عليه ) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبية في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الانتماء ، منها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادة على ما كان ، بأمر الخالق تعالى - انتهى - .

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع ، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ ، أو صاحب الراى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . أما مسألة عموم الطوفان في نفسها ، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يمتدّد بالدين ، ألا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صحّ سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقليّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض ، وما تحوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، عقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينيّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببيت جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عاماً ، إذ لم يكن العمران قائماً إلا بقوم نوح ، فكان عاماً لهم ، وإن كان من جهة خاصّة بهم ، إذ ليس ثمّ غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمتاً ، بل هو واحد تمضى عليه السنين ، بل القرون ، ونحوّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلاً قليلاً . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضمافاً وآلافاً ، حتى يظفروا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران في تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذي سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت في غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والسكواسر لتلك العظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام ، تعلم أن الطوفان خاص عام : خاص بمكان ، عام سائر المكان - والله أعلم<sup>(١)</sup> .  
وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ )

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها ؛ إذ لم يخاطب غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فكيف بواحد منهم ؟! « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة ، وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولن كذالك ، نحو ما قبض لنوح ولقومه - كذا فى الكشاف - « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدى ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ )

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله ( نوحاً ) . أى : وأرسلنا إلى عاد . و ( أخاهم ) بمعنى ( واحداً ) منهم كما يقولون : ( يا أخا العرب ) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ »

(١) ترك المؤلف رحمه الله بعد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلاث الصفحة ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتعمقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تفكرون ، إذ تردون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك ، أو تدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ )

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدرة ، أى الأمطار . منصوب على الحال من ( السماء ) . ولم يؤث ، مع أنه من مؤث ، إمالات المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب - أفاده السمين - « وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استألمهم إلى الإيمان ، ورغبتهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراساً على التقوى بما ذكر ، لثراء مالهم ،

وترهب أعدائهم، وقد كانوا مثلاً في القوة، كما قالوا<sup>(١)</sup> : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) « وَلَا تَتَوَلَّوْا »  
أى تعرضوا عما أدعوكم إليه « مُجْرِمِينَ » أى مصرين على إجرامكم وآثامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا  
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » أى بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم،  
وعمى بصيرتهم عن إدراك البرهان ، لمكان المشاوات الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه  
بالضرورة « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا » أى عبادتها « عَنْ قَوْلِكَ » حال من ضمير  
(تاركى) أى تركا صادرا عن قولك . أو (عن) للتعامليل، كهى فى قوله<sup>(٢)</sup> (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ)  
أى لأجلها ، فتتملق (بتاركى) . والاول أبلغ ، لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيد  
(الباء واللام) . وهذا كقولهم فى الأعراف<sup>(٣)</sup> (أَجِئْتَنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ  
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .

« وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى مصدقين . إفناط له من الإجابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا  
أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

[٥٥] (مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

« إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ » أى مستك « بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » أى بجنون ، سببك

(١) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

إبائها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تنصركم بما تفعلكم .

قال الزخشرى : دلت أجوبتهم المقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط ، وبله مقناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنقصر وتنقصم .

« قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ » أى على « وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزخشرى : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقتهم بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالفتهم ، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه <sup>(١)</sup> : ( ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله ، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أَمَرَهُمْ بالاحتشاد والتعاون في إيصال السكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقواه : « فَسَكِيدُونِي جَمِيعاً » أى أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تَنْظِرُونِ » يعنى إن صح ما لو حتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضرر ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أعجل ماتعملون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا ، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجمل الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقَّهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدى لأسباب المعازة والمعاراة ، فلم يقدرُوا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [ ١٠ / يونس / ٧١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ،  
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلى بسوء ، لتوكل على الله  
« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .  
قال القاشانى : بين وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولاً بأن ربوبيته  
شاملة لكل أحد ، ومن يرتب يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره  
وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ،  
عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز  
منه - انتهى - .

والناصية : مثبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية  
للحال باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصرته .  
وفى العنابة : قولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة  
والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تعليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم  
قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم على ،  
إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى ( العناية ) : هو تمثيل واستمارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب  
والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادة فحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .



وهو كقوله<sup>(١)</sup> : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والافتصار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تقولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم « وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ » استئناف بالوعيد لهم . أى : فيهلككمهم ، ويحيىء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالة عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شىء . « إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حاكم مستولٍ على كل شىء ، فلا يمكن أن يضره شىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح العقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » . وقد بين في غير آية ، منها قوله<sup>(٢)</sup> : (وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا فَاهْتَكُوا بِرِجِّ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ \* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْمِلُهَا ظُفُرُهُمْ فَبِئْسَ الْقَوْمُ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(١) [ ٨٩ / الفجر / ١٤ ] . (٢) [ ٦٩ / الحاقة / ٧٦ ] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثاني بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتحريض لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثاني من عذاب الآخرة ، تمريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم ، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ )

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتزليلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهي للبعيد المحسوس . وتمعدى الجحود بالباء حملاً له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن ( كفر ) جرى مجرى ( جحد ) . فتعدى بنفسه في قوله <sup>(١)</sup> : ( كَفَرُوا رَبَّهُمْ ) . وقيل : ( كفر ) كـ ( شكر ) يتعدى بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن ( جحد ) كذلك .

والعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع ( الرسل ) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفضيلاً لحالهم ، وإظهاراً لكامل كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد <sup>(٢)</sup> ( لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ) - كذا في ( العناية ) وأبي السعود - .

(١) [ ١١ / هود / ٦٠ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٣٦ ] .

« وَاتَّبِعُوا » أى أطاعوا فى الشرك « أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جعلت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السمود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى حجة اتباعهم رؤساءهم . يعنى : أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاءً وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية ( كفر ) - « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة ، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم ، والمقت ، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه ، وإعادة ( عاد ) للمبالغة فى تهويل حالهم ، والحث على الاعتبار بنبيهم . و ( قوم هود ) عطف بيان لـ ( عاد ) فائدته النسبة بذكره عليه السلام ، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها <sup>(١)</sup> ( وَاتَّبِعُوا أَمَرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) . وقبل ذلك ( حفيظ ) و ( غليظ ) ، وغير ذلك مما هو على وزن ( فعييل ) المناسب لـ ( فعول ) فى القوافى - والله أعلم - .

(١) [ ١١ / هود / ٥٩ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ )

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ » عطف على ما سبق بيانه من قوله : (وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى ثمود ، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ » أى كونكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، ومواد النطف التى خلق نسله منها ، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمركم فيها ، أو جعلكم عمارها ، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف <sup>(١)</sup> : ( وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ) ، « فَاسْتَغْفِرُوهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره ، مجيب دعاءه بالقبول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَنَفِىٰ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ )

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير ، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف) .

(١) [٧ / الأعراف / ٧٤] .

« أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٌ » أى موقع فى الريبة، وهى قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ )

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى حجة ظاهرة ، وبرهان وبصيرة « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة ، « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى ينجينى من عذابه ، « إِنْ عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة معكم فى أهوائكم ، « فَمَا تَزِيدُونَنِي » أى باستمباعكم إياى ، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجعلونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدوننى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ )

« وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ » الإضافة للتحريف ، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة والخلق « لَكُمْ ءَايَةٌ » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم ، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله ، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ - ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » أى مردود .

قال في (الإكليل) : استدل به في إمهال الخصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن ل (لثلاثة) نظراً في الشرع ، ولهذا شرعت في (الخيار) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ )

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبين « نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شيء ، والغالب عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى من جهة السماء ، فرفجوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا ينجى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (كَأَنَّمْ يَمْنُونَا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) « كَأَنَّمْ يَمْنُونَا فِيهَا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى في مساكنهم « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ » أى فأهلكهم . « أَلَا بُعِدَا لِمُؤَدَّ » أى هلاكاً واعنة ، لبعدهم عن صراطه .  
وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبههم فى الأعراف <sup>(١)</sup> بما يغنى عن إعادته هنا ، فليراجع .  
ثم أشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أنباء هذه السورة بقوله  
سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَامًا » أى سلمنا عليك سلاماً ، « قَالَ سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى ، أو سمين بقطر ودكه ، لقوله <sup>(٢)</sup> : ( بِعِجْلٍ سَمِينٍ ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل ( لبث ) إما ضمير ( إبراهيم ) ، و ( أَنْ جَاءَ ) مقدر بحرف جر متعلق به ، أى ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن ( أن جاء ) . وإما ( أن جاء ) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها أنها بمعنى ( الذى ) . وهى فىهما مبتدأ ، و ( أن جاء ) خبره على حذف مضاف . أى : فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ ( الجزء السابع ) .

(٢) [ ٥١ / الذاريات / ٢٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٠] ( فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطِ )

« فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضعيف إذا همّ بفتك لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . « قَالُوا » أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية<sup>(١)</sup> ( قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ \* قَالُوا لَا تَوَجَّلْ ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأننا ملائكة ، ولم نزل بالعذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطِ » أى لإهلاكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] ( وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَآهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ )

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَلَبَسَ نَآهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنها حكما بمد أن ولداً ومُسمياً بذلك . وفى توجيه البشارة إليها هنا ، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى ، كآية<sup>(٢)</sup> ( فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ) ( وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ )<sup>(٣)</sup> إيدان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والمقام أمسى بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوح به تعجبها فى قوله تعالى :

(١) [ ١٥ / الحجر / ٥٢ و ٥٣ ] . (٢) [ ٣٧ / الصافات / ١٠١ ] .

(٣) [ ٥١ / الزاريات / ٢٨ ] .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ )

« قَالَتْ يَا وَيْلَتَا » أى يعجبى . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء التكلم ، ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

« أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض العرب (عجوزة) - حكاه يونس - « وَهَذَا بَعْلِي » أى زوجى إبراهيم « شَيْخًا إِنَّ هَذَا » أى التولد من هرمين « لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تجر به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( قَالُوا أَلَمْ نَجْعِبْكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ )

« قَالُوا أَلَمْ نَجْعِبْكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى أستمعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشري : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة ، صلوات الله عليهم ، فى قولهم : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإعلاء به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياك والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم - انتهى - .

فالحكمة خبرية ، وجوز كونها دعائية . و ( أهل البيت ) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .  
« إِنَّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للحماد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن ، وتمجده ؛ إذ شرفها بما شرف .

القوله فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ )

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ » أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استمطافاً لدفعه .

روى أنه قال : أتهلك البار مع الأنيم ، أتهلكها وفيهم خمسون باراً ؟ حاشا لك !

ف قيل له : إن وجد فيهم خمسون باراً فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

ف قيل : أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أو عشرة ، ف قيل له : لانهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس

فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! ف قيل : نحن أعلم بمن فيها لننجيته .

و ( يُجَادِلُنَا ) جواب ( لما ) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن ( لما ) كـ ( لو )

تقلب المضارع ماضياً ، كما أن ( إن ) تقلب الماضى مستقبلاً . أو الجواب محذوف ، والمذكور

دليله أو متعلق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى الجدل « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ لَأَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال ، ولا بدعاء ، ولا بغیرها .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخلص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فُسرَّتْ بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية ، وهى <sup>(١)</sup> : (فَبَشِّرْ نَاهَا بِإِسْحَاقَ . . .) الخ وفُسرَّتْ بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول الم بشر على الم بشر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشر به .

وحكى الأصم أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم : (سَلَامٌ)

بالرفع ، كما تقدم مره انتهى .

(١) [ ١١ / هود / ٧١ ] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .  
ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ - أى  
 فى خدمة أضياف إبراهيم . قال فى ( الوجيز ) : وَكُنْ لَا يَحْتَجِبْنَ ، كمادة العرب ونازلة  
 البوادى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .  
ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب فى القول ، وأن صوتهسا ليس بمعورة . كذا  
 فى ( الإكليل ) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من  
 أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً فى آية <sup>(١)</sup> : فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)  
 « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بمد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام ،  
 وكان مقبلاً فى ( بلوط تمرًا ) التى بد ( حَبْرُونَ ) ، المدينة المعروفة اليوم بد ( الخليل ) ؛ « سِيءَ  
 بِهِمْ » أى ساء مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرِدٍّ ، حسان الوجوه ، تخاف أن يقصدهم  
 قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضايق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به  
 ذرعاً ، أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهري : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدك إليه فلم تقبله .  
 وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا يقال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطبق طاقته ،  
 فَضْرِبَ مثلاً الذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والافتقار عليه .

وقال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

(١) [ ١١ / هود / ٨١ ] و [ ١٥ / الحجر / ٦٥ ] .

في سيره ذرعاً ، على قدر سعة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .  
و ( ذرعاً ) تميز ، لأنه خرج مفسراً محوّلاً . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله <sup>(١)</sup> :

وَإِنْ بَاتَ وَخَشَا لَيْلَةً لَمْ يَضِقْ بِهَا ذِرَاعًا وَلَمْ يُصْبِحْ لَهَا وَهُوَ خَاشِعٌ  
« وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ )

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً . وقرئ مبنيًا للفاعل .  
« وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش ويكثرونها ،

(١) قائله هو حميد بن ثور الهلالي . من قصيدة مطلعها :

تَرَى رَبَّةَ الْبَهْمِ الْفِرَارَ عَشِيَّةً إِذَا مَا عَدَا فِي بَهْمِهَا وَهُوَ ضَائِعُ

الْبَهْمُ جمع بَهْمَةٍ وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . يريد : هى ترى الهرب إذا رأت الذئب . وعدا ، بمعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهو خاضع . وخشاً : جائئاً ، لا طعام له . وقوله ( ذراعاً ) هو مثل قولهم : ضاق بالأمس ذرعاً وذراعاً ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . أى مدّ يده إليه فلم يفلح .

فمرنوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفهم حياء. فالجملّة معترضة لتأكيد ما قبلها . وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره . أى : لما عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك « قَالَ » أى لوط « يَا قَوْمِ هُوَ لَا بَقَايَ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يقي أضيافه بيناته ، وذلك غاية الكرم ، أى فتزوجوهن . أو كان ذلك مبالغة في تواضعه لهم ، وإظهاراً لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً في أن يستحيوا منه ، ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه . - هذا ملخص ما في (الكشاف) . - ومن تابعه . وظاهر أنه ، عليه السلام ، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجهٍ ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوق ورغب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه . - مبالغة في الاعتناء بحمايتهم ، وقياماً بالواجب في مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . ولعلهم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات في حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : ( هن أطهر لكم ) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية التمام . وبالجملّة فهو ترغيب بمُخَالَ الوُقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهراً . - والله أعلم . - وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق السنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تناهى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى أن تمصوه بما هو أشد من الزنى خبثاً .

« وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينونى وتفضحونى فى شأنهم ، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره ، فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة . و(تخزون) مجزوم بحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ : بإثباتها على الأصل .

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » أى فيرعى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا زبدهن . وفى تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت - إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واثقاً وجازماً بعدم رغبتهم فيها . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهداً بما علمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ إِيَّايَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة ، لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل فى الشدة والمنعة .  
أى : لفعلت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله فى ( الملل ) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ (١) : ( رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ) إنكاراً على لوط عليه السلام . ولا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منمة عاجلة بمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمان قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام فى طلب قوة من (١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٥ - باب : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... الخ ونصه . عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى <sup>(١)</sup>: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى ، فكيف يفكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن ربّ أراه المعجزات ، وهو دائماً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ )

« قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَاسْرِبْ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، اثلاً يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى ( الإكمال ) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٥١ ] .



« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتمعجل في السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء ، للتباعد عن موقع العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ )

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا « أى عذابنا » جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا « أى فقلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً . » وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ « أى طين متحجر ، كقوله <sup>(١)</sup> : ( حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ) ، » مَّنْضُودٍ « أى يرسل بعضه فى إثر بعض متتابعاً . قال المهايمى : اتصل بعضه ببعض ، ليرجوا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم ورينهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ )

« مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ » معلمة عنده « وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بِبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملابسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يبرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بحرماً أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ ( البحر الميت ) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ ( بحر الزفت ) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقره إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ ( بحيرة اوط ) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [ ٥١ / الذاربات / ٣٣ ] .

قال أبو السعود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف  
مذكر ، أى بشيء بعيد ، أو لأنه على زنة المصدر كـ (الزفير) و (الصهيل) . والمصادر ،  
يستوى فى الوصف بها ، المذكر والمؤنث .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ  
غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ  
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ )

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أى وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله . و ( مدين ) بلد بين الحجاز  
والشام ، على مقربة من ( معان ) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها .  
« أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ  
وَالْمِيزَانَ » أى لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى نعمة وزوة  
فى رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع فى وجودكم . يعنى : فلا تقمضوا الزوال ذلك عنكم  
بما تاتونه مما تنهون عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ »  
أى مهلك ، أو لا يشذ منه أحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ  
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ )  
« وَيَا قَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى العدل .

قال الزخشرى : فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله : (أوفوا)؟

قلت : نهوا أولاً عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص السكيات والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نعيماً على النهى ، وتعميراً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذى هو حسن فى القول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبمث عليه . وجيء به مقيداً ( بالقسط ) أى ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب . لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توفيق على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق ، كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بمد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون فى المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير <sup>(١)</sup> :

أف كل أسواقِ المراقِ إناؤةٌ      وفى كل ما باع امرؤٌ بخسٌ درهم

الا تسعجى منا ملوكٌ وتقعى      محارمنا . لا تقعى الدم بالدم

وروى ( مكس درهم ) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم فى الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شئ يباع ، شيئاً . كما تفعل السامسة ،

(١) هذان البيتان ليسا فى (ديوان زهير) واستشهد فى (لسان العرب) فى مادة (ات و) بالبيت الأول ونسبه إلى حنّى بن جابر التغلبي .

وأخطأ صاحب (اللسان) فى اسم الشاعر . وإنما هو : جابر بن حنّى التغلبي ، صاحب المفضلية ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والتاسع عشر .

وروايتهما : وفى كل . . . . . مكسٌ درهم

. . . . . لا يبيؤ بالدم

( لا يبيؤ ) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كافئاً له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ المرسفى اسمه كذلك فى ( رغبة الآمل ) بالجزء الخامس ص ٢٢٣

وكان المبرد فى ( السكامل ) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حبيّ التغلبي .

أو كانوا يمسكون الناس ، أو كانوا ينقصون من أئمان ما يشتركون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك - كذا في ( الكشاف ) و ( شرحه ) .

قال القاشاني : لما رأى شعيب ، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجاجهم عن الحق بالجب ، وتهيأ لهم على كسب الخطام بأنواع الرذائل ، وتماذيه في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال - نهاهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجاجكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفساركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور همكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والمدالة ، واعتزلوا عن الشرك ، والظلم ، الذي هو جماع الرذائل ، وأم الغوائل .

« وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أي لا تعملوا فيها بالفساد . يعم أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّة عن الإيمان ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ )

« بَقِيَّةُ اللَّهِ » أي ثوابه الباقي على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام ، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما « خَيْرٌ لَّكُمْ » أي في دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن يبارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول . وقال القاشاني : أي إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فبايقي لكم عند الله من الكمالات والسعادات الآخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التي تشقون بها ، وتشقون على أنفسكم في كسبها وتحصيلها ، ثم تتركونها بالموت ، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبالالتبعات والعذاب اللازم ، لما في نفوسكم من رواسخ الهيئات .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ » أي رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة . وإنما أنا مبلغ نذير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء واتهمك بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : ( أصلاتك ) بالإنفراد - قاله القاضى - .

« أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك ، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام <sup>(١)</sup> : ( قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ) . أو قالوا ذلك تهكمًا به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بتهكمهم قبله والأدق . هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيب به بمثل ما عَقَّب به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى أخبرونى إن كنت على

برهان يقينى مما أتانى ربى من العلم والنبوة « وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى ما لا حلالاً

(١) [ ١١ / هود / ٦٢ ] .

مكتسباً بلا بخس وتطيف ، أو حكمة ونبوة ، وكللاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لي أن أخون الوحي ، وأترك النهي عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتركية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف ، والنهي عن دين الآباء . وحذف جواب (أرأيتم) لما دل عليه في مثله ، كما مرّ في نبأ نوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ » أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهي عنه - أفاده القاضي - .

وفي ( التاج ) : يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشاني : أي ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذي أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أي إصلاح نفوسكم بالتركية ، والتهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » أي وما كوني موفقاً للإصلاح إلا بعمونة الله وتأييده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أي أعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أي أرجع في السراء والضراء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ)

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي » أي لا يكسبنكم عداوتي « أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الفرق والربح والصيحة « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ »

قَوْمٌ لَوْ طُفِّئَ مِنْكُمْ بِبَمِيدٍ « فإن منازلهم قريبة منكم ، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض ، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . ينفون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعما بحديثه : ما أدري ما تقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يفهمهم كثير منه . و(الكثير) مراد به السكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضائق عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن الفحيم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتعل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل ما لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذه والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا :  
« وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا » أى لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءا « وَلَوْلَا  
رَهْطُكَ » أى قومك وأنهم على ملتنا « لَرَجَمْنَاكَ » أى قتلناك برمي الأحجار ، أو شرفقتة  
« وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ » أى لا تمز علينا ولا تسكرم ، حتى نكرمك وننعمك من الرجم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُموهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ،  
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ )

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ » أى من أمره ووحيه ودينه  
« وَاتَّخَذْتُموهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا » أى نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر ،  
لا يعبأ به . و ( الظهرى ) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما قالوا :  
( إمسى ) بالكسر فى النسبة إلى ( أمس ) . و ( دهرى ) بالضم ، فى النسبة إلى ( الدهر )  
« إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنِّي يَأْتِيهِ  
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ )

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ » أى غاية تمسكنكم واسيطاعتكم ، أو على جهنمكم  
وحالكم التى أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّي عَامِلٌ » أى على مكاتى التى كنت  
عليها من الثبات على الإسلام والمصابرة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنِّي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ  
رَقِيبٌ » أى منتظر لهلاككم . وفى زيادة ( معكم ) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .



قال الزمخشري : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزاعها في ( سَوْفَ تَعْلَمُونَ ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزاعها وصل خفي تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف . اهـ - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ في التحويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما في قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله <sup>(١)</sup> (وَعَدْنَاهُ غَيْرُ مَسْكُودٍ) ، وقوله <sup>(٢)</sup> (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى .

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى بالمذاب « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الْأُبْدَا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ)

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى يقيموا « فِيهَا الْأُبْدَا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراء هم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [ ١١ / هود / ٦٥ ] . (٢) [ ١١ / هود / ٨١ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » وهو العصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسُلطاناً واضحاً على رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشري : هذا تجهيل لمتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مازد ، فاتبعوه وسلخوا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمرشد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غى وضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » أى يوردهم . وإيثار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذى يردونه . ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - وهو النصب من الماء - إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد السكيد ، والنار على الضد من ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَنْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ،  
فهى تابعة لهم ، أين كانوا . ذ ( يوم ) معطوف على محل ( فى ) هذه ، لا ابتداء كلام .  
« يَنْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى ينس العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ )

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى » أى المهلكة « نَقِصُهُ عَلَيْكَ » أى بالوحي « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى ومنها عافى الأثر كالزرع المحصود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيلٍ )

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبها  
من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيلٍ » أى إهلاك وتخسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ )

« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ » إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فيه

إشعار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين ، التي لا تبدل ، وإنذار كل ظالم ظلم نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ

النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما قص في هذه السورة ، أوفى أخذ الظالمين « لَآيَةً » أى لعلبة  
« لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ  
وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ)

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ » أى لمدة محدودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى <sup>(١)</sup> :  
( لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ )

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفس مع صوت ممدود ، والشهيق : رده . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يعلو معه النفس غالباً .  
أو شبه صراخهم بأصوات الحمر .

(١) [ ٧٨ / النبأ / ٣٨ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ  
فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ  
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا  
يُرِيدُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا  
شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ » أى غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفي التوقيف بـ (السموات والأرض) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : ( ما أقام ثبير ) ،  
و ( ما لاح كوكب ) و ( ما طأ البحر ) ونحوها : لا تعليق قرارهم في الدارين بدوام هذه  
السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأييد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها ، إذ لا بد لأهلها من مظل ومقل . قال تعالى <sup>(١)</sup> :  
(يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) وقوله <sup>(٢)</sup> : « وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ  
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء؟  
فالجواب : ما قدمناه في قوله تعالى <sup>(٣)</sup> : ( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ  
اللَّهُ ) يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٨ ] . (٢) [ ٣٩ / الزمر / ٧٤ ] .

(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨٨ ] .

والذسكة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتهما فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .  
وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعنى أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكول إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذى نذب الشارع إلى استعماله فى كل كلام كقوله : ( لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ )<sup>(١)</sup> فليس يحتاج أن يوصف بمقتضى ولا منقطع .

والمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .  
ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة ، وما أعد لهم من عذابه قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ١٠٩ ] ( فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ مِنْ غَيْرِ مَنْقُوصٍ )

« فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ » أى فى شك من عبادتهم ، فى أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم . وفيه تسلية له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ » أى فهم سواء فى الاشرار ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم ، فسيحل بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهى عن المرية . « وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ » أى من العذاب ، كما وفى لآبائهم « غَيْرِ مَنْقُوصٍ » .

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢٧ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتَلَفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى<sup>(١)</sup> : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ) « لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوقِينَهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوقِينَهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » أى فلا يخفى عليه شئ منه ، وسيجزئهم عليه . والتنوين فى ( كُنَّا ) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تنبيه :

فى هذه الآية قراءات : قرئ ( إن ) و ( لما ) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف ( إن ) وتشديد ( لما ) ، وبعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : ففيها إعمال ( إن ) المخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى ( لما ) لأمر الابتداء ، داخلية فى خبر ( إن ) . و ( ما ) إما موصولة بمعنى ( الذين ) واقعة على من يعقل ، واللام فى ( ليوقينهم ) جواب قسم مضمرة . أى : وإن كُنَّا للذين ، والله ! ليوقينهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة ( ما ) . أى : وإن كُنَّا لخلق ، أو

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٣ ] .

لفريق ، والله ! أيوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان ، واتفقا في اللفظ ، فصل بينهما بـ ( ما ) ، فهي زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هي الفارقة بين المخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيذاً .

وأما الثانية : وهي تشديدهما ، فـ ( إن ) على حالها ، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و ( لَمَّا ) بمعنى ( إلاً ) أو جازمة بمعنى ( لم ) وبجزومها محذوف . أي : لما يملأوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها .

وأما الثالثة : وهي تخفيف ( إن ) وتشديد ( لا ) ، فـ ( إن ) مخففة عاملة كما تقدم ، و ( لا ) بمعنى ( إلاً ) أو جازمة أيضاً . أو ( إن ) نافية بمنزلة ( ما ) و ( لا ) بمعنى ( إلاً ) و ( كُلاً ) منصوب بمضمر ، أي : وما أرى كُلاً إلا .

وأما الرابعة : وهي تشديد ( إن ) وتخفيف ( لما ) فواضحة . فـ ( إن ) هي الشددة عملت عملها .

والكلام في ( اللام ) و ( ما ) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في ( اللام ) والثلاثة في ( ما ) .

وتمت قراءات آخر فلتراجع في ( السمين ) وغيره .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ١١٢ ] ( فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ )  
« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » أي في القرآن ، و ( الكاف ) للتشبيه ، أو بمعنى ( على )  
« وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أي من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا » أي تجاوزوا حدود الله  
« إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .



القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

« وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئننوا إليهم ، لما يفضى الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ » أى أنصار ينعمون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » أى لا تمنعون مما يراد بكم . والقصد تباعد المؤمنين عن موادة المشركين المحاديين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة في الصدة عن سبيل الله ، لأن ذلك يناقى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور في النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينعفس في حماه ؟

تنبيه :

قال بعض المفسرين اليمانيين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أرادته تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟  
فروى عن ابن عباس والأصم أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شيء من دينكم .  
وقيل : ترضوا بأعمالهم - عن أبى العالية - .  
وقيل : تلحقوا بالمشركين - عن قتادة - .  
وقيل : تداهنوا بالظلمة - عن السدى وابن زيد - .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمة أولى .  
قال الزمخشري : النهى يتناول الانحطاط فى هواهم ، والاتقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزّي بزبيهم ، ومدّ العين

إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : ( وَلَا تَرْكُنُوا ) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : ( إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ ! انتهى .  
قال اليماني : قد وسع العلماء في ذلك وشددوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استمانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء ضرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيقاسهم وإقرارهم فلا . انتهى - .

وأقول : كل هذا مبنى على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركى مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ )

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ » أى غدوة وعشية « وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ » أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . من ( أزلفه ) إذا قربه ، وازداف إليه . وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشية : الظهر والعصر ، لأزما بعد الزوال عشية ، وصلاة الزايف المغرب والعشاء - كذا فى الكشف - .

والآية كدوله تعالى <sup>(٢)</sup> : ( أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ )

(١) [ ١٧ / الإسراء ٧٨ ] .

في جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغيا غاية اللطف في بلاغة الإيجاز . وانتصاب ( طرفي النهار ) على الظرف لإضافته إليه . و ( زلفا ) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولكن ضمت عينه إتباعاً لغائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كمنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كزغيف وزغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ما تقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ ( زلفي ) كحلي ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بمعطفه على ( طرفي النهار ) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على ( الصلاة ) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أي اقترب .

و ( من الليل ) صفة زلفا - كذا في العناية - .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أي التي من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أي التي قلما يخلو منها البشر ، أي يكفرنها . « ذَلِكَ » أي إقامة الصلوات في الأوقات المذكورة ، « ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ » أي ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنني عاجلت امرأة في أقصى المدينة ، وإنني أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا . فاقض في ما شئت ! فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يرد النبي ﷺ شيئا . فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية ( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة - أخرجه البخارى<sup>(١)</sup> وغيره .

وفي رواية عن أبي أمامة<sup>(٢)</sup> قال له ﷺ : أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تَعُدُّ . وقرأ الآية .

وفي رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لما وقع ، لأنها كانت سبباً في النزول - كما بيناه غير مرة - .

وفي الصحيح<sup>(٣)</sup> عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يححو الله بها الخطايا . ورواه البخارى أيضاً عن جابر ، ورؤي نحوه عن عثمان وسلمان .

والإمام أحمد<sup>(٤)</sup> عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

(١) أورده البخارى ، موجزاً ، في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٦ - باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذى ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه في ٤٩٠ - كتاب التوبة ، ٧ - باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ ( طبعنا ) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ ( طبعنا ) .

(٣) أخرجه البخارى في ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ - باب الصلوات الخمس

كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) .

وله عن أبي ذر<sup>(١)</sup> مرفوعاً ( إذا عملت سيئة فأتبعتها حسنة تمحها ) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال ( هي أفضل الحسنات ) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البر .  
لطيفة :

أشار القاشاني عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس في أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه من الهيئات الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور ، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والسكدورة بالصفاء - فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يرد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، وداراً للعين الغرور ، التي تدخل بها الظلمة لُبْذُهِبَ النور الوارد آثار ظلماتها ، وبكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : ( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) :

وقد ورد في الحديث<sup>(٢)</sup> ( إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر ) وأمر بإقامتها طرفي النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيئة النورية ، في أوله إلى سائر الأوقات ، فمسي أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) .

(٢) أخرجه مسلم في ٢٠ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ ( طبعينا ) عن أبي هريرة .

وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والسكدة .  
ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها في الليل ، وهي تجذب النفس إلى  
تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني ، وتبجزها عن شأنها الخاص بها ، الذي هو مطالعة  
عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لمهارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتكدرها  
بالغشاوة - احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : ( وَزُلْفًا مِنْ  
اللَّيْلِ ) . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ( وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَاصْبِرْ » أى على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على  
الصلاة كقوله <sup>(١)</sup> : ( وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ) ولا مانع من شموله للكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى في أعمالهم فيوفيه أجورهم من غير بخس .  
قال أبو السمود : وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ،  
بتصويره بصورة ما يتمتع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة ،  
مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب في ( العناية ) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر  
بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ ، وإن كانت عامة في المعنى ، وفي المنهيات جمعت للأمة .  
وقوله تعالى :

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ( فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ )

« فَلَوْلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي .  
لطيفة :

( البقية ) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من رأى والعقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالتدبيحة . وأطلق على الفضل ( بقية ) استعارة من البقية التى يصطفيا المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : ( فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا ) ، و ( فلان من بقية القوم ) أى من خيارهم . وجوز كون ( البقية ) مصدراً بمعنى ( البقوى ) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سطخه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ما صاروا مغممين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء . و ( الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشري على الثانى ، لأنهم المقصود بالنهى قبله ، حيث قال : أراد بـ ( الذين ظلموا ) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعقدوا همهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

«وَكَاْنُوا مُجْرِمِيْنَ» اى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» اى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و ( بظلم ) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، اى استحال فى الحكمة أن يهلك القرى ظالماً ، وتمكيده للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . اى لا يهلك القرى بسبب إثراك أهلها . وهم مصلحون ، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومسامحته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : ( يبقى الملك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم ) وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولاً ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً - يقضى بحمل ( الظلم ) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإفلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الانماط ، غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه - كذا أشار له أبو السعود - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً» اى مجتمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» اى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .



القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» أى لكن ناسا رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا فى المذهب والمقصد ، ووافقوا فى السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

وقوله تعالى : « وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » فى المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه ( مختلفين ) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمرة الاختلاف ، من كون فريق فى الجنة ، وفريق فى السمير ، خلقهم . واللام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يمدبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من ( رحم ) لتأويلها : ( أن والفعل ) أو كونها بمعنى الخير . وتسكون الإشارة لاثنتين ، كما فى قوله <sup>(٢)</sup> ( عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزو إلى ابن عباس رضى الله عنهما . وإن كان الضمير ( من ) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق - كذا فى المعناية - .

وأشار القاشانى إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستعد كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمرا وصنعة ، ويستتب بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يتعيش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكمالها ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

(١) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٦٨ ] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هذه : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من ( الْجِنَّةِ النَّاسِ ) عصاتهم ، والتعريف للمهد ، والقرينة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ ( أَجْمَعِينَ ) حيثُ ظاهر ، وإن لم يحمل على المهد ، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه ، موكولاً إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ ( أَجْمَعِينَ ) تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ ( أجمعين ) إذ فيه رد على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار - كذا فى العنابة - . ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم - أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ( وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ )

« وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » أى تقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسول من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و ( كَلَّا ) مفعول ( لنقص ) و ( من أنباء ) بيان له . و ( ما ثبت ) بدل من ( كَلَّا ) أو خبر محذوف .

« وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتضة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجملوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] ( وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ )

« وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يعمظون ولا يتذكرون « اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ما جاءنا والاتعاظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ )

« وَانْتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى ما وعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعده . ونصر عبده ، فله الحمد وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] ( وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ )

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبي ﷺ ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحتية فى قراء الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت وهم . أى فيجازى كلًّا بما يستحقه - والله أعلم - .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ١٢ - سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .  
قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله <sup>(٢)</sup> : ( وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبيائهم . وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ما قاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و ( يوسف ) اسم عبراني ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه ( راحيل ) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضرائها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولداً سمته ( يوسف ) وقالت : يزيدني به ربى ولداً آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .  
وقد روى البيهقي في ( الدلائل ) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرِّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« الر » تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التمديد ، والإشارة في قوله : « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى آيات السورة ، نزل ما بعده ، لكونه مترقياً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة في ( تلك ) إليها . والمراد بـ ( الكتاب ) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و ( المبين ) بمعنى الظاهر أمرها وإعجازها ، إن أخذ من ( بان ) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أخذ من التمديد فالمفعول مقدر ، أي أنها من عند الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » أي الكتاب المنعوت بما ذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أي لكي تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَلَوْ جَمَعْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ) . أو لتستمعوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيجاء . أو ( لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) بإزالة عربيا ، ماتضمن من المعاني والأسرار ، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم

(١) [ ٤١ / فصلت / ٤٤ ] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ )

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقته أخباراً ، وأجمعه حكماً وعبراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإيحائنا إليك « هَٰذَا الْقُرْآنَ » وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ « أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ )

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتغال ، أو مفعول محذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمسكته صرغاً عنه . قال القاشانى : هذه من المنامات التى تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المفخيلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . ( يا أبت ) أصله يا أبى ، فموض عن الياء تاء التانيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرهما لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان ( يا أبتاً ) فحذف الألف ، وبقي الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعميص . وقوله : ( رأيتم ) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله <sup>(١)</sup> : ( أَعْبَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ) . وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود . قال المهايى : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أر من تعرض لهياة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ )

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، وللمدوبة المصغر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أى فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحميلاً عظيماً متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » أى ظاهر المداوة ، فلا يالو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشانى : هذا النهى من الإلهامات الجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجرّدات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلاً ،

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٣٥ ] .

حتى يقع العلم به كما هو ، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوباً . ويسمى هذا النوع من الإلهام ، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه ، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطي في ( الإكليل ) . قال السكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربي : فيه حكم بالمادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة ، تحرم من الحسود . وهذا داخل في قولنا : إن الحسن إذا كان سبباً للقبیح قبح . ومنه آية الأنعام <sup>(١)</sup> : ( وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ) وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

الآيات المروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالي في ( منهاج العابدين ) والدبلي في كتاب ( التصفية ) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعّم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى . ومقصوده أن خوف من الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١٠٨ ] .



قال السيد ابن المرتضى اليماني في (إيثار الحق) : مما زاد الحق عموضاً وخفاءً خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح الحق عدواً لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبل في الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أنبى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمار به ، وتقريره عليه ، ونزلت فيه <sup>(١)</sup> : (إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) . وقد صح عن أبي هريرة <sup>(٢)</sup> أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثنته لكم ، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . قال الغزالي في خطبة (المقصد الأسنى) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحاشى . اسكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعاضى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، يصطفيك للنبوّة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير المفامات ، وإنما سمي التعبير تأويلاً ، لأنه جمل المرتضى آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث ملك أو نفس أو شيطان .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَبَقِيَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ » أى بما سيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه ، وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَا أَنْهَأَ عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتماع « حَكِيمٌ » فى صفه .

### تنبيهات :

الأول - قال أبو السعود ؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : ( وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والخيال ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاقى منها ، مما هو أنفسى . كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المأينة فى أحد ذبلك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجري أحكامه .

الثانى - استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : ( يا ابن فلان ) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث - قال المهايى : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بعينه ، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ؛ وأن لكل حادث تأويل عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال ، إذ تصور المخيلة معاني معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيقتصور بما فيها مما يناسب المعاني ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فلاخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

### بحث في الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه ( الذريعة ) في بحث ( الفراسة ) ما مثاله :

ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال <sup>(١)</sup> لنبيه ﷺ : ( وَمَا جَمَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ) . وقال <sup>(٢)</sup> : ( إِذْ يُبَيِّنُ اللَّهُ لُغَيْبَ آلِ مُوسَىٰ ) . وقال <sup>(٣)</sup> : ( يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ) وقوله <sup>(٤)</sup> : ( يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ) .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، ولميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ،

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٦٠ ] . (٢) [ ٨ / الأنفال / ٤٣ ] .

(٣) [ ٣٧ / الصافات / ١٠٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٤ ] .

ويُفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصحّ له رؤيا ، وفيهم من تصحّ رؤياه . ثم من صحّ له ذلك ، منهم من يُرشح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل العبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> : ( الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحرّيه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حدقاً فيه ورب زر الحظ من الحكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، في ذاتها الروحانية ، لمحّة من صور الواقعات . فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جليّ بالمحاكاة ، والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير . وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبيرٍ لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللحمة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً وبكامل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، حديث ٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن . ومنه خاص ، كالذي للأولياء . ومنه عام للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي ، وهي عند ما يمرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها ( جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ) - وفي رواية ( ثلاثة وأربعين ) ، وفي رواية ( سبعين ) وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم في رواية ( ستة وأربعين ) من أن الوحي كان في إيمته بالرؤيا ستة أشهر ، وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عاماً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذي هو جبلي لهم ، فتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تشوف إليه في عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من المبررات فقال <sup>(١)</sup> : ( لم يبق من النبوة إلا المبشرات ) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال ( الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له ) .

(١) أخرجه البخاري في : ٩١ - كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - على ما فى كتب التشريح للجالينوس وغيره - وينبث مع الدم فى الشريانات والمروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعمل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المبينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بما يدركها من التعب والكلال ، وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة . وإنما يكون ذلك بانحناس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يفشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتكون مشيمة مركبها ، وهو الروح الحيوانى ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انحس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتماهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحانيّ ، لأنها مفضولة عليه . وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المبهودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي - أضغاث أحلام .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال <sup>(١)</sup> : ( الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان ) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ، لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل . هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيمها من النوم . وهي خواص للنفس الإنسانية ، موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا بد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم ، فلا يمتنع في غيره من الأحوال ، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة في كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث ( علم تعبیر الرؤيا ) أن التعبير لها كان موجوداً في السلف ، كما هو في الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، وعن أبي بكر رضي الله عنه . والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوره ، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء . ومن المرنى ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير ، لجلائها ووضوحها ، أو اقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تقمة سابقة ، انظرها تمة .

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢٦ - باب القيد في

النام ، حديث ٢٥٣٩ .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ )

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « آيَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلِّسَائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقٍ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانى : أى آيات معظمت لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسمى ساعٍ ، ولا بإرادة مريدٍ ، فيملكون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشر ، فيقوى بقيتهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهني ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتشير شوقهم وإرادتهم ، وتشجذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ )

ضلالٍ مُّبِينٍ

« إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بنيامين شقيقه ، وأمه راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالحبة



من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال - عشرة فصاعداً - سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

«إِنَّ أَبَانَا لَكِنِّي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى ذهاب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من الخبايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] ( اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ )

« اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا » من مقول قولهم المحكي قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيده ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعد ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء . وتفكير ( أرضاً ) وإخلاؤهما من الوصف للإيهام . أى في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : « يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ » جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه بدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم . « وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه « قَوْمًا صَالِحِينَ » أى تائبين إلى الله عما جنيتهم ، فيكون صلاحهم فداء عن معصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أئبيكم .

### تنبيهات :

الأول - قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيمة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ، والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم !

الثانى - قال ابن كثير : اعلم أنه لم يتم دليل على نبوة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكر سوى قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ) وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللمعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يتم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ )

« قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ » أى صريحاً ورَضِيَ به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف معها سد باب الصلاح . وإنما أظهره فى مكان الإضمار استجلاباً لشفتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و ( الجب ) : البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأقوام الذين يسرون

في الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سد باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب ( رؤووين ) .  
ولما تواطأوا على رأيه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] ( قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ )

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم نخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب ، والسمي والنشاط ، حيث يكون الخضر والمياه والزرع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملا له القاطع انشراطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ )

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعمتم أنكم له حافظون ، لحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشري : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدها : أن ذهابهم به ، ومفارقتة إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثانى : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبهم ، أو قل به اهتمامهم ،

ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما

حزنه لمفارقتة ربما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل ، فأمر سهل . فسكانهم لم يشتغلوا

إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى - أى فيما حكى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( قَالُوا لَنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَائِرُونَ )

« قَالُوا لَنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى جماعة أقوياء ، يمكننا أن نزرعه من

يد الذئب « إِنَّا إِذَا لَخَائِرُونَ » أى هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون

لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْملُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتَنْبِئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه « وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْملُوهُ فِي غِيَابَةِ

الْجُبِّ » فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا

بما مكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَنْبِئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا » أى أعلمناه بإلقاء فى روعه ،

أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك .

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متعلق بـ ( أوحينا ) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء فى ( اتقبنفسهم ) ، أى : لتحدثنهم بذلك، وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك، كما سيأتى فى قوله تعالى (١) : ( فَمَرَّ بِهِمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعد ، يأكلون ويلهون إلى المساء .  
وجواب ( لما ) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل : الجواب ( أوحينا ) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ )

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهوم موته القاطع عنه متمناه ، لئتنقطع محبته عنه، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا، ببكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم ( الأب ) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ )

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى فى العذو والرى بالفصل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ »

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٨ ] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا « أَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَزْوَادِ وَغَيْرِهَا لِيَحْفَظَهُ » فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ « أَى كَمَا حَذَرْتُ .

وقوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يَحَاوِلُونَهُ . يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَصْدُقُنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَلَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهَمُنَا ، وَغَيْرَ وَائِقٍ يَقُولُنَا ؟ .

وقد استقيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً - نقله ابن العربي - .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتغرين الأعضاء

على التصرف - كذا في الإكليل - .

قال بعض اليمانيين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفسقة .

وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القهار ، فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالمناضلة بالقسي ،

والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية . رجح

الجواز ، إن كان بغير عوض ، أو بم عوض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ (١) صارع

يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت (٢) : سأبت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقت في المرة الأولى ،

فلما بدنت سبقتني وقال : هذه بثلث .

وفي الحديث (٣) : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٢١ - باب في المأثم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥٠ - باب حسن معاشره النساء ، حديث

رقم ١٩٧٩ ( طبعنا ) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبه بن عامر ،

في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢٣ - باب في الرمي ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ )

« وَجَاءُوا عَلَىٰ قِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » يياذبا تأمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قيصه الموشى ، وغمسوه في دم مَمْرٍ كانوا ذبحوه . و ( كذب ) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و ( على ) ظرف لـ ( جاءوا ) مشعر بتضمينه معنى ( افترؤا ) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغيب يوسف ، وتفرقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقواه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولاً ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا المذر من قوله لهم : ( وَأَخَافُ أَنَّ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ) ، وكثيراً ما تتفق الأعداء الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى ( الإكليل ) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالآمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : ( بَلْ سَوَّلَتْ ... ) الآية .

لطائف :

قال الهامى : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كاللالم ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى السكر بالمحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلًا بفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبياً ، يُخلق أولاً على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغنى عن القدر .

فيل للهدد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

(والتسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن . « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » ( صبر ) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً ، أى فشأنى صبر جميل . أو فصبّر جميل أجمل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عارضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية . « وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » أى المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف - كذا قدروه - وحق أبو السعود : أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علم في الكذب . قال سبحانه<sup>(١)</sup> : ( سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ) وهو الأليق بما سيحىء من قوله تعالى<sup>(٢)</sup> : ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه - يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعد الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : ( وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى . قال الرازى : لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهى قوية . والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجادل . فما لم تحصل إعاقته تعالى ،

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٨٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ١٨ و ٨٣ ] .



لم تحصل الغلبة . فقلوه : ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) يجرى مجرى قوله : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ) . وقوله : ( وَاللَّهُ الْمُسْتَعْمَنُ ) يجرى مجرى قوله : ( وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) . انتهى .  
ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف في الحب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ،  
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ )

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ »  
أى أرسلها في الحب ليلأها ، فعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا  
غُلَامٌ » وقرئ ( يَا بُشْرَايَ ) بالإضافة والمغادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى .  
ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تحجب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد  
القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و ( الغلام ) : الطائر الشارب . أو من ولادته إلى أن يشب . والتنوين للتمظيم .  
« وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . ف ( بضاعة ) حال . وفى ( الفرائد ) :  
أنه ضمن ( أَسْرُوهُ ) معنى ( جَمَلُوهُ ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو  
مفعول له . أى : لأجل التجارة . و ( البضاعة ) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة  
وافرة من المال تقضى للتجارة : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ )  
« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

في (أَسْرَوْهُ) و (شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجاراً من بلدة مدين، فلما أصدروا دهم يوسف، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهماً من الفضة، ثم أتوا بيوسف إلى مصر. و (دراهم) بدل من الثمن. و (المعدود)، كناية عن القليل، لأن الكثير يوزن عندهم. و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه.

#### فوائد:

قال في (الإكليل)، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك. ومن قوله: (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنَّ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته. وأن ثمن الحرّ حرام. قال بعضهم: وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً، وهو لا يملك، إذ لو ملك استوفوا ثمنه.

قال بعض الزيدية، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية، كما أن ظاهره الإسلام. اهـ.

قال المهايغي: ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره. وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه. وأن البشري قد يعقبها الحزن، والعزة قد يعقبها الذلة، وبالعكس. اهـ.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )  
« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »  
يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسهل له من اشتراؤه في مصر ، فاعقني به ، وأوصي أهله ، وتوسم فيه الخير والصلاح . ومعنى ( أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ) اجعلي مقامه حسناً مرضياً . ( والثوى ) محل التواء ، وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مَثْوَاهُ كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرمه به . أو ( الثوى ) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام في بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه . فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجح به الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيماً على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة في زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مَثْوًى كريماً في منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، ووجاهة في أهلها ، ومحبة في قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمنَعُ عما يشاء ، ولا يُنَازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ )  
« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، ومجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك الحن ، وذخر له السيادة فى تلك المبودية . ومعنى ( بَلَغَ أَشُدَّهُ ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و ( الحكم ) إما الحكمة ، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس . قال الزمخشري : وفى قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ) تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متقيقاً فى عنفوان أمره ، وأن الله آناه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبابه ، آناه الله الحكمة فى اكتماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ )  
« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز يعد ما أمر امرأته بإكرام مثنواه ، من مراودتها له وإيائه .

والمرادة : المطالبة. أى : طلبت منه أن يواقعها. وتمديتها بـ ( عن ) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر. وإيراد الموصول دون امرأة العزيز، لتقرير المرادة ، فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على ما لا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام - كما سيأتى-.  
( هَيْتَ ) قُرْب كـ ( لَيْتَ وَقِيلَ وَحَيْثُ ) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ، وفتح التاء وضمها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى ( تعال ) . واللام لتبيين المفعول أى المخاطب . ونقل عن الفراء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فشكلوها بها .  
قال ابن الأثيرى : هذا وفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم فى ( القسطاس ) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللَّهِ » منصوب على المصدر. أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيني إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما أوثقت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .  
قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على آتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السوء .  
وقوله : ( إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى تسكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل : إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تمهدى ، حيث أمرك يا كرامى ، فكيف يمكن أن أسمى إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بالطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و ( رَبِّي ) خبر ( إِنَّ ) ، و ( أَحْسَنَ مَثْوَايَ ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فبكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاختصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعت إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتها ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و ( الفلاح ) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى ( أفلح ) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ ( الظالمين ) كل من ظلم ، كائنًا من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والمصاة لأمر الله تعالى ، دخولاً أولياً . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللعزى بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى - أن الواجب عند الدعاء إلى المصيبة الاستعاذة بالله من ذلك ، ليمصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .  
الثانية - أن السيد والمالك يسمى ( رَبًّا ) .

الثالثة - أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشرّبك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب . وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخلّ بالمكافأة عليه ، كان ظالماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ )

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » ( الهم ) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإجماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إِمضائه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم هان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمٌّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان .

روى الشيخان<sup>(١)</sup> وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) أى بمخالطته ، أى قصدها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا بلوئها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإصرار إليها بقولها ( هَيْتَ لَكَ ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

ومعنى قوله ( وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهم بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعي . واسكنه رأى من تأييد الله بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب المتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١ و ٢٠٢ ( طبعنا ) .

قال أبو حيان : ونظيره ( قارفتَ الإثمَ لولا أن الله عصمك ) . ولا نقول : إن جواب ( لولا ) يتقدم عليها ، وإن لم يقم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهتَ أصلاً . وقيل : جواب ( لولا ) لنفسيها ونحوه . فمضى ( الهم ) حينئذ ما قاله الإمام الرازي : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم في الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمراة الفائقة حسناً وجمالاً ، تنهياً للشاب الناضج القوي ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . ( فالهم ) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلاً جبلياً ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لأنه قصدها قصداً اختيارياً . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبي عن كمال كراهيته له ، ونفرتة عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه - عليه السلام - تسجيلاً محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلزَمَ في قرآن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو هم كل منهما بالآخر . وصُدِّرَ الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسَمي ، وعقب الثاني بما ينفو أثره من قوله عز وجل : ( لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى



بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستمصاص ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ، ولكن حيث كان مشاهدآ له من قبل ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والالتقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبليّة ، لكانوا إما ملائكة أو عالمآ آخر . ولما كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسى .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لنزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمت الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزّهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى .

هذا وقد أنصق هنا بعض المفسرين الولمين بسرد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتاب ، ومن المصوّّلين ، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أئزه تأليف عن نقلها ، بردها ، وكلمها - كما قال العلامة أبو السمود - خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لا كها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

بالزخشرى ، فجود الكلام فى ردها ، فليُنظر ، فإنه مما يسر الواقع عليه .

(والسوء) : المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تنهى فيه

قال أبو السمود : وفى قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ...) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة

على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقليل :

لنصرفه عن سوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه

من موجبات العفة والمعصية . فتأمل .

(والمخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل : إن كل من له دخل فى هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد

الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ...) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله : (هِيَ رَاوَدَتْنِي) ونحوه ،

وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله :

(إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ

الْمُخْلِصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُغوه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى .

عفا الله عنهم !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ

مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَاسْتَبَقَا الْبَابَ» متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ...) الخ ، وقوله : (كَذَلِكَ) الخ ،

اعتراف جى به بين المطفوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ،

واستبقا الباب ، أى قصد كل سبق الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى

لتنممه من الخروج ووحد (الباب) هنا مع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البرائى الذى منه المخلص .

« وَفَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبتته من خلفه فانقذت ، أى انشقت قميصه .  
 « وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادفها بملها تمت قادماً .  
 « قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة  
 لساقتها ، وإغراء عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ  
 قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ )

« قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ  
 قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّمه منه أمارّة الدّفع عن نفسها به ، أو تعرّضه  
 فى مقام قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ )

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أمارّة إدباره  
 عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن  
 انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارّة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو  
 قدّم من قبل ، على علم بأنه لم ينفذ من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد  
 الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارّة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارّة على صدق  
 المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أمارّة على صدقها ، على أمارّة صدقها فى الذّكر ، لإزاحة للتهمة ،  
 ووثوقاً بأن الأمارّة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بمينها - والله أعلم -

هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله <sup>(١)</sup> : ( وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، لإزاحة اللثمة التي خشى أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيرُهُ في الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال : (بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتي ذكره ، لأنه لو بدأ به لفتنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قُدُّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قُدُّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعني بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً في النفس ، ولهن فيه نية ورفق ، وبذلك يملأن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالآمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُقطة والسرفة والوديعة ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

« يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » نودي بحذف حرف النداء ، لقربه وكال تفتنه للحديث .

(١) [ ٤٠ / غافر / ٢٨ ] .

أى : يا يوسف اعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .  
« وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برى منه .

« إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتمادين للذنوب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليماً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً ، إذا اكتفى من مؤاخذتها بهذا القدر .

قال ابن كثير : أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال : إنه كان قليل الغيرة . قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الحصب والجذب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها - أثرًا فى أخلاق البشر وأبدانهم - انظر المقدمة الرابعة والخامسة من ( مقدمة ابن خلدون ) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة - وهى مصر - بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٣٠ ] ( وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ )

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من ( المز ) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و ( الشغاف ) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا نَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَيِّاتٍ أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ) « فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتيا بهن ، وسوء قائلتهن . استعير ( المكر ) (لغيبه)

لشبهها له فى الإخفاء . أو ( المكر ) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لترهين يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكرأ بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيئات ، « لَهُنَّ مُتَكَيِّاتٌ » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشري : قصدت بطلب الهياة - وهى قعودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن - أن يدهشن ويُبهنَّ عند رؤيته ، وبشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتكى إذا بُهت لشيء وقعت يده على يده ، فتبكنهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمته ، وهن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كفت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتمجّباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفّين عنه البشرية لغرابة جلاله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك ، كإركز فيها ألا أبقح من الشيطان . ولذلك يشبهه ، كل مقتناه في الحسن والقبح ، بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ،

وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ )

« قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي

فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالباً للمصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشري : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ،

كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ،

واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ،

لا مزبد عليه ، وبرهان لا شئ أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ،

مما فسروا به الهم والبرهان . انتهى .

« وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ » أى ليعاقبن بالسجن والحبس « وَلَيَكُونَا

مِنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْنَهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ )

« قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » أى من مواتهاها ، لأنه مشقة قليلة ،

تتمها راحت أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَالَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»  
يعنى : ما أردن منى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أى أَمِلْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية «وَأَكُنْ مِنْ  
الْجَاهِلِينَ» أى بسبب ارتكاب ما يدعوننى إليه من القبيح .

قال أبو السمود : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن  
الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ،  
وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن  
لا طاقة له بالمداغة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . لأنه يطلب الإيجار والإلجاء  
إلى العصمة والعفة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هوانه . انتهى .

قال القاشانى : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ )  
« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أى أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أى أبده  
بالتأييد القدسى ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ »  
أى لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أى بما يصلحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ )  
« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ » أى ظهر للعزیز وأهله ، « مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ » أى الشواهد على  
براءته ، « لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أى إلى مدة يرون رأيهم فيها .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فسكانا مع يوسف ، ثم رأها يوماً وهما مهمومان فسالهما عن شأنهما ، فذكر له أنهما رآيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصا على ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأن بين يديّ وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حواري ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رآياه سهل التأويل ، لوجود مثاله في المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلية ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ )

« قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول : يأتكما طعام كيت وكيت ، فيجدهانه كذلك . وحقيقة ( التأويل ) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على نعيمين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستمارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبهه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما : ( نَبَأُنَا بِتَأْوِيلِهِ ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحي والإلهام ، لا من التكهّن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سماعاً شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِأَبٍ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »  
 هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحي والإلهام ، أى خصنى بذلك لتترك الكفر ، وسلوك طريق آبائى المرسلين . أو كلام مستأنف ، ذكر تمهيداً للدعوة ، وإظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، والوثوق به . والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله : ( مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا ، فضلاً عن الوقوع . وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام . والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه ثبت بالطريق الأولى . أو المراد نفي الوقوع منهم لمصمتهم . وتكرير ( هُمْ ) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيدهم كفرهم بالآخرة . وزيادة ( من ) فى المفعول ، أعنى ( مِنْ شَيْءٍ ) لتأكيد العموم ، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء ، قليلاً أو كثيراً ، صنماً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك .

وقوله : ( ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ) يعنى عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة ، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .

ولما ذكر ، عليه السلام ، ما هو عليه من الدين القويم ، تلطف فى الاستدلال على بطلان

ما عليه قومهما من عبادة الأصنام ، فغضب لها مثلاً يتضح به الحق حق انتصاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ أَبُوتُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ أَبُوتُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحة الضرورية المقتضية للعودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبي فيه . فجعل الظرف توسماً ، مفعولاً به . أى : أرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يقاب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنزاع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أخوتهم ، وهى قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته ، حسنة في نفسها ، فهو ليس مُحَدِّثَ الحسنى . انتهى .

وفي قوله : (أَرَأَيْتَ أَبُوتُ مُتَفَرِّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهد عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة ، كذلك في عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ )

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ »  
يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون  
إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها  
« إِنَّ الْحُكْمَ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها ،  
لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية  
العظمة ، « ذَلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره  
« الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى  
لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : ( قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالها  
عن تعبير رؤياها ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوها إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ،  
وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما سقاجله  
مفتيه بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزمخشري : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك ، فوصل به وصف نفسه  
بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ،  
وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ،  
ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استغفاه واحد منهم ، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليه مما استغفى فيه ، ثم يفقيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم ، فوصف نفسه بما هو بصده - وغرضه أن يقتبس منه ، وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتها إليه ، وبيانه لها مرتبة علمه ، شرع في تفسير ما استفسراه . واسكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

« يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويلقى على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . معنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلاً لأمره ، وتفخياً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشككة الحكم ، البهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما في ذلك ، لما أنهما بصده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقى : ( اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعللى بالرؤيا ، وما جرى على ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للامنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادى أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستمانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَتَمَآوُاْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ) . وقوله حكاية عن عيسى <sup>(٢)</sup> : ( مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ) . وفى الحديث <sup>(٣)</sup> : ( والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ) . وجلى أن ذلك من نظام السكون ، وال عمران البشرى ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى - فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جداً ، وذكر من رجاله الضمفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [ ٥ / المائدة / ٢ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٥٢ ] و [ ٦١ / الصف / ١٤ ] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ ( طبعنا ) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلًا عن الحسن وقتادة . قال : وهذه الرسائل هاهنا لا تقبل ، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، في غير هذا الوطن . - والله أعلم - انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » بمعنى : فشفله الشيطان حتى نسي ذكر يوسف عند الملك . « فَلَمِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها . ولأهل اللغة أقوال في (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، أى معنى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ )

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى للملئ : « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً آخر يابسات دقيقة ، أى نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الخضراء المقلنة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر ، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطاب للأشراف من قومه ، وكان دعا ، إثر استيقاظه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .



القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِمَآلِمِينَ)

« قَالُوا » أى الملائكة للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع ( ضغث ) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِمَ ، ثم استعير لما تجمعه القوة التخيلية من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وترىها فى المنام . و( الأحلام ) جمع ( حلم ) ، وهو ما يراه النَّائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشئ الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث <sup>(١)</sup> ؟ الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشتى : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنّها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى ( الأحلام ) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِمَآلِمِينَ » يعتمل أن يريدوا بـ ( الأحلام ) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يمتروا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول يصيره من وادى :

\* على لا حب لا يُهتدى بمناره \*

(١) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ١٠ - باب من رأى النبى ﷺ فى

النام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كَانَهُمْ قَالُوا : وَلَا تَأْوِيلَ لِلْأَحْلَامِ الْبَاطِلَةِ ، فَنَسْكُونُ بِهِ عَالَمِينَ . وَقَوْلَ الْمَلِكِ لَهُمْ أَوَّلًا : ( إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي عِلْمِهِ عَالَمِينَ بِهَا ، لِأَنَّهُ أَتَى بِكَلِمَةِ الشَّكِّ ، وَجَاءَ اعْتِرَافُهُمْ بِالْقَصُورِ مُطَابَقًا لَشَكِّ الْمَلِكِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ اسْتِفْهَامِهِمْ عَنْ كَوْنِهِمْ عَالَمِينَ بِالرُّؤْيَا أَوْ لَا . وَقَوْلُ الْفَتَى : ( أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ) إِلَى قَوْلِهِ ( لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ) دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمْ مَا وَدَّ كَرَّ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ) « وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمْ مَا » أى من صاحبي السجن ، وهو الساقى : « وَادَّ كَرَّ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى تذكر بعد مدة . وكان تذكره ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبركم به بالتلقى عن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسى ، ولذلك لم يقل : أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أى فابعثونى إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر ، وما لحق من قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ )

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أى أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة في الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أول ، لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى فى

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفي قوله : ( أَفْقَنًا ) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملاسة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَلَّيْ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعلمون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبت الكلام ، بل قال ( لعل ) و ( لعلهم ) مجازاة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

\* لعل النبايا دون ما تعدانى \*

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه - أشار إليه أبو السعود - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ )

[٤٨] ( ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ )

[٤٩] ( ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ )

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفعتن لهن من الحبوب

المتروكة في سنا بلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئي في المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله . ولا يتمين المجاز العقلي - أى يؤكل فيها - كما في : ( نهارة صائم ) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ » أى تحززون وتحبثون للزراعة .  
« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدّة ، وأكل الفلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يمطرون من الغيث ، أو يفاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عاداتهم من عنب وزيتون ونحوها .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر ( العصر ) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر ( الغيث ) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب ، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يقوفاً صلاحها على مبادئ أخر غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارة له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبهم على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى ( يَعْصِرُونَ ) يجلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ .  
قال الزمخشري : تأويل البقرات السمان والسنبيلات الخضر بسنين مخصبة ، والمعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يحى مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

#### تنبيه .

قال فى ( الإكمال ) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا ( الرؤيا لأول عابر ) ليس عامّاً فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخصص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفي قوله : ( ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ... ) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والفتوى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملًا ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشري : إنما تأتى وثبتت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجملوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف ثمره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها . قال عليه السلام <sup>(١)</sup> : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهدت إلى هذا الحديث .

موافق التهم . ومنه قال <sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ للمارين به في معتكفه ، وعنده بعض نسائه : هي فلانة ، اتقاء للتهمة .

وعن النبي ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات المجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : ( ارجعْ إِلَى رَبِّكَ ) ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى في المسند والصحاحين <sup>(٢)</sup> مختصراً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي - مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة ، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همٌ بأمرأة العزيز همًّا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه ، فَلَأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجسدر - أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقي منها ما لقي ، من مقاساة

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ - باب هل يخرج المعتكف لحوأجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبي ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثاني ( طبعة الحلبي ) : وأخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١١ - باب قوله عز وجل : وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ ( طبعتنا ) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدتها مقيمة في عدوة العداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستمعن ، ولذلك اقتصر على وصفهن بقطع الأيدي ، ولم يصرح براودتهن له ، وقولهن ( أطع مولاتك ) واكتفى بالإيحاء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » . وفى إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تميم لقوله : ( اسأل ) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لمن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ )

« قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فإذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن - أى شأنكن - إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ معنى : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أى قبيح . بالأن في نفى جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة ( من ) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فى قوله : هِيَ رَاوَدْتَنِ عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشري : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة ، والزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يمتلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى - \* والفضل ما شهدت به الأعداء \*

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ )  
 « ذَلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ  
 بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق  
 فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ،  
 وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .  
 « وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يستدده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي  
 غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسي مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته .  
 أو تعنى : أنى ما أبرئ نفسي من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ  
 أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل  
 نفس لأماراة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالمصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : ( ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ... ) الآية - على أنه حكاية قول امرأة العزيز -  
 قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام .  
 وقد حكاه الماوردى فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ،  
 فأفرد بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن  
 أبى حاتم سواء . والمعنى : ذلك التثبت والثبات والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه  
 بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانيته بقوله :



(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبجالتها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن مافيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : ( وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ) أى لا أزهرها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة السكلية ، ولا أزكها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوىء .

هذا خلاصة ما قرره على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك - والله أعلم - .

### لطائف :

الأولى - محل قوله : ( بِالْغَيْبِ ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى - وأنا غائب أو غائبة عنه ، أو وهو غائب عنى خفى عن عيني . أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية - قيل : معنى ( لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجاوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لا يهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ) أى فى قولهم .

(١) [ ٩ / التوبة / ٣٠ ] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالث - قال في ( الإكليل ) : ( وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ ) أصل في التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة - قال الزمخشري : لقد لفت المبطلة روايات مصنوعة - ثم ساقها - وقال : وذلك تنها الكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة - رأيت لابن القيم في ( الجواب السكافي ) في عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعي من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة : إنها أضعاف ما يذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثمر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع ، وكان الداعي ههنا في غابة القوة وذلك لوجوه :

أحدها - ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمده .

الثاني - أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشباب وحدته أقوى .

الثالث - أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع - أنه كان في بلاد غربة يفتأ للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يفتأ لغيره في وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس - أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس - أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته في المرأة بإياها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادني كلفاً في الحب أن مُنعت أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إياها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالصد بعد امتناعه وتفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع - أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكففته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن - أنه في دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة .

التاسع - أنه لا يخشى أن تنمى عليه هي ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر - أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا يفكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعني : قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر - أنها استعانت عليه بأئمة السكر والاحتتيال ، فأرته إياهن ، وشكت

حالمها إليهن ، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال <sup>(١)</sup> : ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) .

الثاني عشر - أنها توعده بالسجن والصفار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجن والصفار .

الثالث عشر - إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف <sup>(٢)</sup> : ( أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ) ، وللرأة <sup>(٣)</sup> : ( اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال <sup>(١)</sup> : ( رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتن به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ )

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » أي أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه ، وكرم

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٣ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٢٩ ] .

نفسه ، وسمة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته - وجوز أن يكون فاعل ( كَلَّمَهُ ) يوسف عليه السلام - « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شئ . روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبر له رؤيأما بهج بحديثه هو وخاصة ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهْبطاً للإمداد الربانى ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا برشى ، وقد أقتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعها في إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب في عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به في شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يمضى أمر ، ولا ينفذ شأن في مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوجه بنت أحد العطاء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة - والله أعلم .

قال بعضهم : إن من أعمق النظر في قصة يوسف عليه السلام ، علم بيقيناً أن التقى الأمين لا يضيع الله سمعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المتيصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده وينجح مسامه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للفوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظمأً وشرّاً ، ولا للتنكيل به ألماً وضراً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب - نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نقف أثره عند طرود التجارب ، وملاذا نموز به في الحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، ونهيج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ( قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ )

« قَالَ » أى يوسف الملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى وائسنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيقتصر لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيهم ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشري . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكين مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليلى على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يقولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كإقضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بمقوقته ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصاحته ، وفى أن المتولى أمراً ، شرطه أن يكون عالماً به ، خبيراً ، ذكياً الفطنة - كذا فى ( الإكمال ) . قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جملة على

خزائن الأرض ، إيدانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنى عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : ( إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ) ، وللتنبية على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإعلاء الملك آلة في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . الخ . ولم أر الآن مستفده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات ، ولم أفد عليه في كلام غيره . و ( الأهرام ) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتح حين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجزيرة ، بعيدة أميالاً عن القاهرة ، معدودة من غرائب الدنيا . دعيت لرؤياها أيام رحاتي للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقر رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن ملوكهم .

ففي كتاب ( الأثر الجليل لقدماء وادى النيل ) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية أثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس ، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم ، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وترأخى المصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك ( خوفو ) ، والثاني للملك ( خفرع ) والثالث للملك ( منقرع ) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُنِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « يَتَّبِعُوا مِنْهَا » أى ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجول في قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال : « نَصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ )

« وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكن فى الأرض والجاه والثروة والمُلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ( وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ )

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » إشارة إلى ما وقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول ، ولما مضت هذه السبع ، دخلت السنون المجذبة ، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما ، فأخذ الناس ، من سائر البلاد ، فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وبعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها . وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب ، لتناول القحط بلادهم - فلسطين - فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بمدد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ، وعدم استشعارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه



سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متذكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد . قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادي عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لا بد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندي رهينة ، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلى ، ليتحقق صدقكم . ثم أخذ شمعون ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يمطوا زاداً للطريق ، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

«وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ» بفتح الجيم ، وقرئ بكسر ها ، أى أوفر ركايبهم بالطعام والميرة . «قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ» أى أنه «وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» أى المضيفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

«فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» أى فيما تستقبلون ، «وَلَا تَقْرَبُونِ» أى ولا تقربوني بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ )

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أى سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في ذلك . وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله - قاله أبو السعود - « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أى ذلك . يعنون المراودة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

« وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ » أى لخدمته السكيالين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » بمعنى ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أى اجعلوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أى لكي يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ » أى وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى حسباً أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ( فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أى أنذرنا بمنعه بعد هذا ، إن لم نأت بأخيना ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ » أى نرفع المانع من الكيل ، ونكفل من الطعام ما يحتاج إليه ، وقرئ ( يكتل ) بالتحتمية أى أخونا لنفسه مع اكتيالننا ، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أى من أن يناله مكروه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ »  
أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم <sup>(١)</sup> : ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) ثم ختمتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أتق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا »  
أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصاحبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ )

« وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدايته ، فرأى فضته فى فم متاعه فقال لإخوته : قد ردت دراهمى وهامى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإزالنا عنده ، ورد الثمن علينا . والقصد إلى

استنزاه عن رأيه . أو : لا نبغى في القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما نطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا . وقرئ على الخطاب . أى : أى شئ تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟  
 « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا فضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، ونعير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : ( ماره ) أتاه بطعام ومنه : ( ما عنده خير ولا مير ) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شئ مما تخافه « وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ » أى سهل على هذا الملك الحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شئ يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسمع ونتكثر بمكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيه لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ( قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ )

« قَالَ » أى لهم أبوه « لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويعيناً به ، لتردته على « إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ » أى

تغلبوا كلـكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : ( أحاط به العدو ) سدّ عليه مسالك  
النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد حثهم  
على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاة تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى  
بهم عنها .

الطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم : ( البلاء موكل بالمنطق )  
فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً فى حق يوسف <sup>(١)</sup> : ( وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ )  
فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : ( إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ) أى تغلبوا عليه ،  
فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ  
وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ )

« وَقَالَ » أى أبوه : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ  
مُتَفَرِّقَةٍ » أى لثلاث يستلقت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن  
يمسّ للحاكم ، فيرب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزى متجدد ، على بلدهم  
غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبنية لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،  
(١) [ ١٢ / يوسف / ١٣ ] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبيه ، واتباع البصر . وقيل :  
 نهاهم لئلا تصيبهم المين إذا دخلوا كوكبة واحدة - وسيأتى بيانه - .  
 « وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضى  
 عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرّة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا<sup>(١)</sup>:  
 ( وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ) وقال<sup>(٢)</sup>: ( خُذُوا حِذْرَكُمْ ) . بل أراد بيان أن  
 ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب  
 المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ،  
 وهرب منه إليه . « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء « عَلَيْهِ  
 تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن  
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَمُقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ  
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى  
 ذلك الدخول « يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَمُقُوبَ قَضَاهَا »  
 أى أبقاها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحي ، ونصب  
 الأدلة ، حيث لم يمتد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد  
 الجملة بـ ( إن ) و ( اللام ) وتنكير العلم ، وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

(١) [ ٢ / البقرة / ١٩٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٧١ و ١٠٢ ] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلو مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى - أفاده أبو السعود - .  
« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى ( الملل ) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ،  
إشفاقاً عليهم ، إماماً من إصابة العين ، وإماماً من تعرض عدو ، أو مستريب بإجماعهم ، أو ببعض  
ما يخوفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ،  
لا ينفى عنهم من الله شيئاً يريد عز وجل بهم . ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى  
يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم  
قالوا <sup>(١)</sup> : ( إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) حملهم ذلك على بعض النظر الخفف لحاجة النفس  
ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا ينفى شيئاً ، كما كان عليه السلام <sup>(٢)</sup>  
يجب الفأل الحسن .

#### تنبيه .

قال السيوطى فى ( الإكمال ) : فى هذه الآية - على ما روى عن ابن عباس ومجاهد  
وغيرهما - أن العين حق <sup>(٣)</sup> ، وأن الحذر لا يردّ القدر . ومع ذلك لا بد من ملاحظة  
الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استجباب البعد عن مضارّ العباد ،  
والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا ينفى الحذر عنه . ثم قال : وفى ( التهذيب ) أن أبا على  
أنكر الضرر بالعين ، وهو مروى عن جماعة من المتكلمين .  
وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ١١ ] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب الطب ،  
٤٤ - باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب  
الطب ، ٣٦ - باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبي هريرة .

ثم قال : واختلف من أين أنت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اقتص ببعض الأشياء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها في بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بماسّته ، أو ما في حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعله ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله المادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هذا الحاكم ، وهو الذي ذكره الزمخشري والأمير الحسين ، وهو قول أبي هاشم ، ذكره عنهما في (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازي بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي : إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعبدل عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعنده تتمين المصلحة . ولما كانت هذه المادة مطردة ، لا جرم قيل : العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) هذا البحث بما يشفي ويكفي ، في (بحث هديه ﷺ في علاج العين) بعد إirاده ما روى في الصحيحين وغيرها من حقيقة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ، قال :

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبدمهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا في



سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن المائن إذا تسكيت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعثت قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك المائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين المائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً . وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجمل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه . ويستحي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيز به من شره . وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تسكيت بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بملك الخاصة . وأشبه الأشياء بهذا ، الأفعى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها انبعث منها قوة غضبية ، وتسكيت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فنما ما تشدد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر . كما قال ﷺ (١) في الأبر وذى الطفتين من الحيات :  
 إنهما يلتصقان البصر ، ويسقطان الحمل . ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من  
 غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على  
 الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفة بالطبيعة والشرعية ، بل التأثير يكون تارة  
 بالانصل ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية  
 والرق والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل  
 قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في  
 المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه (٢) : ( وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ) وقال (٣) : ( قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ \* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ \* وَمِنْ شَرِّ  
 غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ \* وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ \* وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ) . فشكل عائن  
 حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه  
 استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه  
 العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن  
 صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على  
 صاحبها . وهذا بمثابة الرمي الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام  
 والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على  
 تنفيذ سحرها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا  
 أردأ ما يكون من النوع الإنسانى . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرف

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٢ - باب في قتل الحيات ، حديث

٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [ ٦٨ / القلم / ٥١ ] . (٣) [ ١١٣ / الفلق / ١ - ٥ ] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى  
كلام ابن القيم ، عليه الرحمة .

وقال الرازى : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة ، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشى عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عالين لمجز الإنسان عن المشى عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل فى قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً ، فبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفسانى ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بمض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، فثبت أنه لا يمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بمض النفوس بحيث يؤثر فى تغير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتمعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل ، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فعمده لا يبقى فى وقوعه شك . وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية بإصابة العين ، كلام حق . لا يمكن رده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إماماً على الطعام ، أو في المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أي لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإزالتهم في بيته ، وحلولهم في كرامته وضيافته ، وحضورهم معه في غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه . كما ذكر في الآية - ثم أراد يوسف أن يحثال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتيانته ، إذ جهز إخوته ، أن يعضوا سقايته في رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُمَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ » أي من الطعام « جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ » وهي جام فضة يشرب به يوسف ، وضمه في ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبعثوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسمى في إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُمَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ »

« قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذن)

نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذن أ كثر الإعلام ، ومنه ( المؤذن ) لكثرة ذلك منه .

و(العير) : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع للإبل ،

لا واحد له ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحجير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة

(عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة

والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربى : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر

أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ « أصل فى الجمالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا

للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشبهوا

بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كبرائى مجيئهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء سرقة ، أخذ من وجد في رحله رقيقاً . وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه ، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون ( جزاؤه ) مبقداً ، والجملة الشرطية كما هى خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمحل والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو .  
« كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقه ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ

كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَّتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين ،

نفيًا للتهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ »  
أى دبرنا لتحصيل غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه .  
والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك ،  
فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق ، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً .  
وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور

فطنته ، وكال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر ( ديناً ) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعنى : أن ذلك الأمر كان بعشيئة الله وتديره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .  
« نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » أى بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفى إثبات صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .  
« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أى من أوائك المرفوعين « عَلِيمٌ » أى فوقه أرفع درجة منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ )

« قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به .  
أى : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .  
« فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ » ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا « أى منزلة ، حيث سرقتهم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتهم تفترقون على البرى . »  
« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أى من أمر يوسف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ « لما تعين أخذ بنيامين وإبناؤه عند يوسف بمقتضى فتوأم ، طفقوا يعطفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، نخذ أحداً بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإيقاد أخيه من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشف عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبعبء أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ برضاة أبويه .

وقولهم : ( إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ) أى إلينا ، فأنعم إحسانك بهذه التهمة . أو من المتهودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ )  
« قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( فَلَمَّا اسْتِيسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ )  
« فَلَمَّا اسْتِيسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى بئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد بأس .  
كما دل عليه ( السين والتاء ) فإنهما يزدان فى المبالغة .



قال أبو السمود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوده بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويماذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم . و (نجياً) حال من فاعل (خلصوا) أى : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجى (فعل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاصر والمخالط ، كقوله (١) : (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) أى مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرده مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أى مخالطوك ومعاشرؤك . وإما لأنه صفة على (فعل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحدناه زنة المصادر ، كالصهيل والوحيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجى ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشق : والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير . وتزليل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشري : وأحسن منه - أى من تأويل (نَجِيًّا) بدوى نجوى أو فوجاً نجياً أى مناجياً - أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون ، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيه ؟ كقوم تمايوا بمادهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

#### لطيفة:

ذكر القاضي عياض في (الشفاء) في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

جوامع الكلام، ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيحاء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليقدر القرآن ، وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره ، في إخوة يوسف (فلما استياسوا منه خلصوا نجياً) ، وهذه صفة اعتزلهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، ( رؤبين ) ، « أَلَمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِّنَ اللَّهِ » أى عهداً وثيقاً فى رد أخيكهم ، وإنما جمل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي بُسُفٍ » أى قصرتم فى شأنه و ( ما ) إما مزيدة ، و ( من ) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و ( من قبل ) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول ( تعلموا ) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة ، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم <sup>(١)</sup> ( وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ) ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) <sup>(٢)</sup> .

« فَلَنُأْبِرَحَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسبب ما . « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل . ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

(١) [ ١٢ / يوسف / ١١ ] (٢) [ ١٢ / يوسف / ٦٣ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

« ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » أى : نُسَبِّحُ إِلَى سُرْقَةِ صَوَاعِ الْمَلِكِ ، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا » أى ما شهدنا عليه بالسُرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم حواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به - كذا في الإكليل - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يعنون مصر . أى : أرسل إلى أهلها فسلمهم عن كنه القصة . « وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فيما أخبرناك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أى زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشري : أمراً أردتموه ، وإلا فما أذرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة ، لو لا فتواكم وتعاليمكم .

قال الناصر : هذان الزمخشري وإسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلًا يقول : هم في الوقعة الأولى سوات لهم أنفسهم أمراً بلا مرأ ، وأما في هذه الوقعة الثانية ، فلم يعمدوا في حق بنيامين سوءاً ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً ( بل سوات لكم أنفسكم أمراً ) كما قال لهم أولاً ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلا بد من زيدٍ بسط في الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِينٌ باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام ، وقامت عنده قرينة تؤكّد نفي التهمة وتقويها ، وهى أخذ الملك له في السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عاداتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ) تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهم يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تمعداً ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشمروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تنطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول في حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم . وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة عليه - والله أعلم - .

وقوله : ( بل سوات لكم أنفسكم أمراً ) واقع بمكانه من حلهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول . اهـ .

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » أى بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرّة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحالى وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المجل تمجيل الفرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ )

« وَتَوَلَّى » أى عرض « عَنْهُمْ » أى عن بنيه كراهة لما جاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ا و ( الألف ) بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء مخدوفة . و ( الأسف ) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزأها . والرزة الأحداث أشد على النفس ، وأظهر أثرًا - لأن الرزة فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غصًا طويلاً عنده ، كما قيل (١) : \* ولم تُنْسِنِ أَوْفَى المصِيبَاتِ بُعْدَهُ \* وَكُلَّ جَدِيدٍ يُدَكَّرُ بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقًا بحياتهما - دون حياته .

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الركبُ (أَوْفَى) حين آبت ركابُهُمْ  
لعمري لقد جاءوا بشرًا فأوجموا  
نَعَوْا باسق الأخلاق لا يَخْلِفُونَهُ  
تكاد الجبال الصمّ منه تَصَدَّعُ  
فمزيت عن (أَوْفَى) (بِغَيْلَانَ) بُعْدَهُ  
عزاء وجفن العين بالماء مُتَرَعُ  
ولم تُنْسِنِ (أَوْفَى) المصِيبَاتِ بُعْدَهُ  
ولكن نكء القرح بالقرح أوجعُ  
وقائلها هشام، أخوذى الرمة وغيلان هو ذوالرمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد (طبعة الحلبي) .

«وَأَيُّضْتُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُزْنِ» وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشري : إذا كثرت الاستعمار محقت العبرة سواد العين ، وقلبت إلى بياض كدر .  
«فَهُوَ كَظِيمٌ» أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعليل ) بمعنى  
(مفعول) كقوله <sup>(١)</sup> (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكه  
إلى أحد قط . فهو بمعنى ( فاعل ) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز لنبى الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟  
قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ،  
وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال <sup>(٢)</sup> : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا  
نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .  
وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه  
وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جمل الحزن  
عاراً على يعقوب .  
وقوله تعالى :

(١) [ ٦٨ / القلم / ٤٨ ] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٤ -

باب قول النبى ﷺ ( إنا بك لمحزونون ) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، ١٥ - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ،  
وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ ( طبعنا ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ)

« قَالُوا » أى أولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذَكَّرْ يُّوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا » أى مريضاً مشفياً على الهلاك ، « اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف . واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا اكّدوه . و ( تفتأ ) مضارع فتئ ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منوباً ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله <sup>(١)</sup> :

فقلتُ يمينَ الله أبرحُ قاعداً ولوقطعَ وارأسى لديكِ وأوصالى

أى : لا أبرح . ومعنى ( تفتأ ) : لا تزال ولا تبرح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( قَالَ اِنَّمَا اَشْكُوْ بَنِيَّ وَحُزْنِيْ اِلَى اللّٰهِ وَاَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ )

« قَالَ اِنَّمَا اَشْكُوْ بَنِيَّ » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِيْ اِلَى اللّٰهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، نخلونى وشكايتى . « وَاَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ » أى لمن شكأ إليه من إزالة الشكوى ، ومزبد الرحمة « مَا لَا تَعْلَمُوْنَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوتى رجاءهم ، وأمرهم أن يرحلوا مصر ، وبطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) فائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا عِمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الظِّلُّ الْبَالِيْ وَهَلْ يَبْعَثُ مَنْ كَانَ فِي الْمَصْرِ الْخَالِيْ ؟

القول في تاويل قوله تعالى :

[٨٧] ( يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ )

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعترفوا من نبيهما ، وتحبروا خبرهما « وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » - لم يَقُلْ ( منه ) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس - « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الرّوح ، بمد مضى المدة فى الشدة ، وسنته فى إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيمّا فى حق من أحسن الظن به .  
وقوله تعالى :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨٨] ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ )

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولا نفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضُّرُّ » أى : الشدة من الجذب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاراه . استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لطيبة الملك ، واستجلاباً لرافته وحنانه . وأصل معنى ( المزجية ) : الدفع والرمى ، فكنا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : برّد أخينا ، أو بالإيفاء ، أو بالمساحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن الثوبة .



## تنبيهات

الأول - في الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسماف مسامهم ، يبعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم ، رقت لهم ، وملكتهم الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه ، كما يأتي .

الثاني - يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث - استدل بعضهم بقوله تعالى : ( فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ) على أن أجره الكيال على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع - استدل بقوله تعالى : ( وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء - كذافي الإكليل - وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف . وسيأتي في التنبهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس - في قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) حث على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسن يجزي أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسن إليه . ثم بين تعالى رأفة يوسف بعرفه إليهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ )

« قَالَ » أي يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أي شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت

وهل تعرف من خالفت ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ) .

لطائف :

الأولى - أبدى المهاييم<sup>٢</sup> مناسبة بديعة في قول يوسف لهم : ( هَلْ عَلِمْتُمْ ) إثر قولهم : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : ( إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ) أنه يمطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوي ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولاتدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تفكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية - قيل : من تطفه بهم قوله : ( إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ) ، كالاتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يُلَفُوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال <sup>(٣)</sup> : ( فَعَلَّمْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة - قال الزخسري : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والشكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزير ، وإبداؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ )

« قَالُوا » أى : استغراباً وتمجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَأَتَيْنَكَ لَأَنَّتَ »

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٥ ] . (٢) [ ٢٦ / الشعراء / ٢٠ ] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ « أى : الذى فعلتم به ما فعلتم ، « وَهَذَا أَخِي » أى من أبوى .  
قال أبو السمود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخياً لشأن أخيه ، وتكلمة لما  
أفاده قوله : ( هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ) حسبما يفيدته قوله :  
« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا  
يوسف ، وهذا أخى ، قد مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرة ، والعزة  
بعد الذلة ، والأنس بعد الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستثناف التعليل بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أى ربه فى جميع  
أحواله ، « وَيَصْبِرْ » أى : على الضراء ، وعن المعاصى ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ » أى أجرهم . وفى وضع الظاهر موضع الضمير ، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى  
والصبر ، موصوفون بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ )

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى فضلك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة  
الحسنين ، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أى : وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين للذنوب ، لم نق  
ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ،  
ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ( قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أى : لا تعيير ولا توبيخ ولا تقرير ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى :  
وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ، إذ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاي عنكم ، وحقه أيضاً لوأسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »  
 أى : فكأنه لا خطأ منكم . و ( اليوم ) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى ( عليكم ) من  
 معنى الاستقرار ، والمعنى : ولا أترّ بكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم  
 بغيره من الأيام ؟ ! فتمبيره بـ ( اليوم ) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول  
 لقائه واشتعال ناره ، فبَعْدَهُ بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى ( الدرر ) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :  
 الْيَوْمَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَنْغِيظُنَا وَالْيَوْمَ نَتَّبِعُ مَنْ كَانُوا لَنَا نَبِعًا  
 ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : ( يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ) .  
 وقوله : ( وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى  
 بالمغو والرحمة لهم ، وبيان للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق ( اليوم ) بـ ( يغفر ) . والجملة  
 خبرية سميت بشارة بماجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .  
 والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

#### تنبيه :

قال بمضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاء عليهم ، ومصافاته لهم ، تملنا  
 أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفي له الودّ ، وأن نفصى عن كل إهانة تلحق بنا ،  
 فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف وبورثنا  
 السعادة الآخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ،  
 ويوردنا مورد الثبور ، فنعمود بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .  
 ثم قال لهم يوسف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ( اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ )

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »  
 أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التي كان يستشعر بها أو يقدّر ، ليكون في مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و ( الإلقاء على وجهه ) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمته واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جود الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكي في ( تذكّراته ) في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفي ( الكنوز ) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، وتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازي عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ، ولولا الوحي ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقاب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

وامل الرازى عنى بالحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ولا ينحى أن أسلوب التزليل فى كنهياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبئ التفتن له .  
وقد جوز فى قوله : ( يَأْتِ بِصِيرًا ) أن يكون معناه بصير بصيراً ، أو يحىء إلى بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ ( بصيراً ) حال قيل : ينصره قوله : ( وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادها فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بمثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقى خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليحمل لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلم إلى ، فقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقى خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكّد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، ثم لا بأسفوا على ما خلفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدرهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحبهم عجالات لأطفالهم ونساءهم ، وأوصاهم ألا يتخاضعوا فى الطريق - والله أعلم - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف ، وانتظاره لروح الله : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » الريح : الرائحة ، توجد في النسيم . أى : لأتسّم رائحته مقبلة إلى . كناية عن تحقّقه وجوده بما ألقى الله في روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجأؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عرّف السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج ، ولا يحنت إن آلى أنه يجد من نسيمه أذكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم : وفي حديث الطبراني : ريح الولد من

ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبذا ريحُ الولدِ ريحُ الخُزّاعي في البلدِ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون . أو لولاه لصدقتموني . (وفنده)

نسبه إلى الفند بفتح الحاء ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال في (الغناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقلّة

فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تمشق ولم تدّر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليداً

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لئلا يسهل ودوامه عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ، إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ )

« فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ » أى الخبر بما يسره من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسه على وجهه ، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوز كون ( إِنِّي أَعْلَمُ ) كلاماً مبتدأ . والمقول ( لَا تَيَاسُّوْا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ ) إن كان الخطاب لبنيه . أو ( إِنِّي لَا جِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : ( إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصَفَّح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدمه بذلك :



القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] ( قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ )

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم ، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المہامی : صرّحوا بالذنوب دون الله ، لزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربي بها السكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التبريل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستجابته ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه آخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف في السنة ، ومنه شرع الاستغفار في السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج . وكان الدعاء في السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب للإجابة مما عداه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ

اللَّهُ ءَامِنِينَ )

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تحلوا عن آخرهم ، ورحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على المَجَل التي بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر - وروى أنهم كانوا سبعين نفساً - وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض ( جاسان ) فينزلوها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فالتقى أباه في ( جاسان ) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم للملتقاء خارج البلد ، وبإبواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين . ونزول الخالة منزلة الأم ، لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوحيدها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله <sup>(١)</sup> ( وَإِلَهُ آبَائِكَ إِرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أى من القحط وأصناف المكاره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ١٠٠ ] ( وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُهَا رَبِّ حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ )

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » أى أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » أى سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا » أى السجود « تَأْوِيلُ » أى تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أى

(١) [ ٢ / البقرة / ١٣٣ ] .

التي رأيتها أيام الصبا ، وهي سجد أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع في الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجاني من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لي مفوضاً إلى خزائن الأرض . وفي الاختصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، ونخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر . وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان في حبس الرشيد :

ومحلّ شمل المسكاره أهلها      وتقلّدوا مشنوءة الأسماء  
دار بهاب بها اللثام وتقمى      وتقلّ فيها هيبة الكرماء  
ويقول عليّج ما أراد ، ولا ترى      حرّاً يقول برقة وحياء  
وبرق عن مسّ الملاحه وجهه      فيصونه بالصمت والإغضاء

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا      فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى  
إِذَا جَاءَنَا السِّجْنَانِ يَوْمًا لِحَاجَةٍ      عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانه . فقال علي بن الجهم :

قالوا : حُبِسْتُ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي      حَبْسِي . وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُغْمَدُ ؟  
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْتِي غَايِبُهُ      كِبْرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدُّدُ  
وَالْبَدْرُ يُدْرِكُهُ الْحَاقُّ فَتَنْجَلِي      أَيَّامُهُ      وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ  
وَلِسْكَلٍ حَالٍ مُعَقَّبُ وَكُرْبَمَا      أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ  
وَالسِّجْنُ ، مَا لَمْ تَنْفُسْهُ لِدَنِيَّةٍ      شَنْمَاءُ ، نَعْمَ الْمَنْزِلُ الْمُتَوَرَّدُ  
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً      فَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُخْفَدُ

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحرى :

أما في رسول الله يوسف أسوةً      لمثلك محبوساً على الجور والإفك  
أقام جميل الصبر في السجن رهةً      فآل به الصبر الجميل إلى الملك

- نقله الثعالبي في ( اللطائف واليوافيت ) - .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ »  
أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسفده إلى الشيطان لأنه بوسوسته  
وإلقائه . وفيه تمادٍ عن تربيتهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقفاً .  
« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ »  
بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأقضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي  
بِالصَّالِحِينَ )

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيماً ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي  
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبیر الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما  
وخالقهما ، « أَنْتَ وَلِيِّى » أى مالك أمورى ، فى الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي  
بِالصَّالِحِينَ » أى من النبيين والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة  
الله عليه بإجماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما أتم  
عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ،  
والحقه بالصالحين . فلبس فيه تمنى للموت ، وطلب التوفى بمنجراً كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان <sup>(١)</sup> عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستمتع به : ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وفي رواية : وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .

### تنبيهان

الأول - في فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانيين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعميم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشيع ، ومنه ما روى في تشيع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته - كما مر - أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن فاذفأ لها . ويستدل من رفعهما على المرش - وهو السرير الرفيع - جواز اتخاذ ، ورفع الغير ، تعظيماً للمرفوع . ويستدل من قوله : ( وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف الماشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى الجريز <sup>(٢)</sup> :

أَرْضِ الْحَرَائِقِ لَوْ أَنَّهَا جَرَوْلٌ      أَعْنِي الْحَطِيطَةَ لَاغْتَدِي حَرَاتِنَا  
مَا جِئْتَهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتَهَا      إِلَّا حَسِبْتُ بَيْوتَهَا أَجْدَانَا

(١) أخرجه البخارى في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٠ - باب الدعاء بالموت والحياة ،

حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم في ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعنا) .

والإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبي ) .

(٢) البيهقي لأبي تمام ونصهما كما في الديوان :

لَمْ آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا      إِلَّا حَسِبْتُ بَيْوتَهَا أَجْدَانَا  
بَلَدِ الْفَلَاحَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرَوْل      أَعْنِي الْحَطِيطَةَ لَاغْتَدِي حَرَاتِنَا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطنه . ومطلماها :

قِفْ بِالطُّولِ الدَّارِسَاتِ عُـلَانَا      أَمْسَتْ حَبَالُ قَطِينِنِ رِثَانَا  
انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول ( طبعة المعارف ) .

وفي الحديث <sup>(١)</sup> : ( من بدا جفا ) أى : من حل البادية . وفي آخر <sup>(٢)</sup> : ( إن الجفا والقسوة في الفدادين ) . ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن . اهـ زيادة .

الثاني - قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكله حصه ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض في مصر ، وهى أرض رعسيس ، أى عين شمس ، وملسكها إليهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فثلبهم بين يدي فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه - كما أوصاهم يوسف - : نحن وآبائنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتي . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا في أرض مصر بجاسان ، فتملكوا فيها ، ونموا وكتروا جداً . وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفني بمصر إذا مت ، بل احملني منها إلى مدفن آبائي ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فالتمش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناي رزقتهما الله هاهنا . فقال : أذنيهما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعاهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أراى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسف بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائهم في المقبرة التى في حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثاني ( طبعة الحلبي ) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها

شعف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث ونصه : إلا إن القسوة وغلظ القلوب . الخ

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ ( طبعتنا ) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، ولأية امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لابنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التمزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون في موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه في المغارة - كما أوصى - ثم عاد بن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتمها الله لأبائهم . ثم توفي يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنا لم يذكر هذا ، القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يبنَ على قانون التاريخ ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هي الآيات والعبر ، تجلت في سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى (١) : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) ، وقوله (٢) : ( وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبُتُ بِهِ فُؤَادَكَ ) . ومضى في المقدمة بسط هذا البحث ، فراجع . وسند ذكر إن شاء الله في آخر السورة شيئاً . من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَوْا مُصْرًا )

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] . (٢) [١١ / هود / ١٢٠] .

كأله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ  
أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ .  
وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل  
على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي ، لأنك لم  
تخسر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيه في البئر ، وهم يَمْكُرُونَ به ، إذ خنوه  
على الخروج معهم ، يفتنون له الفوائل ، وبأيهم في استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهد  
حتى تقف على ظواهر أمرارهم وبواطها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم  
ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة ، وأخفى  
أحوالها كما ينبي عنه قوله تعالى ( وَهُمْ يَمْكُرُونَ ) . والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ -  
لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى  
معرفة إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر  
لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرائهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما  
هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم . وفيه  
أيضاً إيدان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على  
ما هو عليه . معنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاركة ، وإذ  
ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي . ومثله قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ  
أَفْلاَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ) . وقوله <sup>(٢)</sup> : ( وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى  
مُوسَى الْأَمْرَ ) انتهى .

وقوله تعالى :

(١) [ ٣ / آل عمران / ٤٤ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٤٤ ] .



القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ » أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالفتى في إظهار الآيات الفاطمة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسول ، لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . معنى : قد وضع بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى (١) : ( إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ) .

قال الرازى : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فسكان يُظنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصروا على كفرهم ، قيل له : ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى (٢) : ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ )

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على هذا النصيح ، والدعاء إلى الخير والرشد ، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، بمعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة . معنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمرشد القوية ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ، ولا جملاً . فلو كانوا عقلاء لقبوا ، ولم يعمردوا .

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠ ] .

(٢) [ ٢٨ / القصص / ٥٦ ] .

قال بعض اليمانيين : في الآية دلائل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أي : وكما أن من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونموته الجليلة ، في السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يمتدّون بها .

قال الرازي : يعني أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يرون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام المنصرية . أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المقيمة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم ، فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام الكوكبية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام المنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهي أقسام :

أحدها - الآثار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثالج والهواء وقوس قزح  
وثانيها - المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .  
ثالثها النبات وخاصة الخشب والورق والنمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص  
 وطعم خاص ، وخاصة مخصوصة .

ورابعها - اختلاف أحول الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .  
وخامسها - تشرح أبدان الناس ، وتشرح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة  
 فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا  
 على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقي  
 الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشري لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر في  
 الكتاب العزيز مجملًا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أى : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللَّهِ » أى فى إقرارهم بوجوده  
 وخالفقته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى : بمبادئهم لغيره ، وباتخاذهم الأبحار والرهبان أربابا ،  
 وبقولهم باتخاذهم تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

تنبية :

كما تدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفي ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله .  
 يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى - ولكن لا يخلص له فى عبوديته يل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فله من عمله وسميه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .  
 وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبي ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويماقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شئ غير المأمور ، فلا يقبل منه .  
 وروى مسلم <sup>(٢)</sup> وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى ، تركته وشركه .  
 وروى الإمام أحمد <sup>(٣)</sup> عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبي ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .  
 ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه <sup>(٤)</sup> : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا . . . ) الآية - وقال أصحاب هذا الشرك

(١) [ ٩٨ / البينة / ٥ ] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ ( طبعنا ) . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبي ) . (٤) [ ٢ / البقرة / ١٦٥ ] .

لآلِهِمْ ، وقد جمعهم الجحيم<sup>(١)</sup> : ( تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* اِذْ نُسَوِّكُمْ رَبًّا  
اَعْمٰلَيْنَ ) ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه في الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ،  
والملك والقدرة ، وإنما سوّوهم به في الحب والتآله ، والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل  
والظلم . فكيف يسوّى من خلق من التراب ، ربّ الأرباب ؟ وكيف يسوّى العبيد بمالك  
الرقاب ، وكيف يسوّى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ،  
الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكوته  
وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكهاله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أقيح من هذا  
وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيم في  
( الجواب السكا في )

قال الحفاظ ابن كثير : وتمّ شرك خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة  
أنه دخل على مريض ، فرأى في عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ  
إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ) .

وفي الحديث<sup>(٢)</sup> : من حلف بغير الله فقد أشرك - رواه الترمذى عن ابن عمر وحسنه .  
وفي الحديث الذى رواه أحمد<sup>(٣)</sup> وأبو داود<sup>(٤)</sup> وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله  
ﷺ : إن الرقى والتائم والتؤلة شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة  
عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنج وبزق كراهة  
أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتحنج ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٩٨ و ٩٧ ] . (٢) أخرجه الترمذى في : ١٨ - كتاب الفذور  
والأيمان ، ٩ - باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد في مسنده  
بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول ( طبعة الحلبي ) والحديث رقم ٣٦١٥ ( طبعة المعارف ) .  
(٤) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٧ - باب في تعليق التائم ، حديث

من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ! فأخذه فقطمه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقي والتأثم والتموّلة شرك . قالت : قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي بريقها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها ، كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ : اذهب البأس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد <sup>(١)</sup> عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمه فقط أشرك !

وأخرج أيضاً <sup>(٢)</sup> عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك .

وبما ذكر يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجوده مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذ من الشفعاء ، وما يعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرباء مثلاً ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفي . وعلى هذا ، قال شرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ورسوله ، فلهما أن يوقعا أي اسم شاء على أي مسمى شاء . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك في عبادته تعالى ، وفي خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به . فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والمطاء والمنع ، وذلك يوجب تمايق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نقماً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أفصح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية السكّال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتمظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستمانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . وينع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبه له ، ولا ندّ له ، وذلك أفصح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأنسدتهم عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسن . إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . وأما في جانب التشبه به ، فن تعاضم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفاً ، ورجاءاً ، والتجاء ، واستعانة ، فقد تشبه به ، ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهيئنه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفي الصحيح <sup>(١)</sup> عنه ﷺ قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة . وكذلك من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفي الصحيح <sup>(٢)</sup> عنه صلى الله عليه وسلم . أغبط رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه في الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتقمة هذا البحث في ( الجواب السكايفي ) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٤ - باب أبفض الأسماء إلى الله ،

حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبى هريرة .

ومسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢١٢٠ (طبعنا) .



القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ )

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » أى : عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإتيانها . وهذا كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ) وقوله <sup>(٢)</sup> : ( أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ \* وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ \* أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ( قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ )

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيل ، أى طريق ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّسان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفة بصفات كماله ، ونعوت جلاله « عَلَىٰ بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عماية . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » أى : وأزهره

(٦) [ ١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ ] .

وأجله وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو ندّ أو كفء أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

### تنبيهات :

الأول - قال السمين ( أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ) يجوز أن يكون مستأنفاً ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالاً من الياء . و ( على بصيرة ) حال من فاعل ( أَدْعُو ) . أى : أَدْعُو كائناً على بصيرة . وقوله : ( وَمَنْ أَتَّبَعْنِي ) عطف على فاعل ( أَدْعُو ) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعنى يدعو أيضاً . ويجوز أن يكون ( عَلَى بَصِيرَةٍ ) خبراً مقدماً ، و ( أَنَا ) مبتدأ مؤخراً ، و ( مَنْ أَتَّبَعْنِي ) عطف عليه ومفعول ( أَدْعُو ) إما منوى ، أى الناس ، أو منسى .

الثانى - دل قوله تعالى ( عَلَى بَصِيرَةٍ ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انقرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايقه ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرّ عليها بالحجة ، وخطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإيمان فيها اتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه - انظر ( رسالة التوحيد ) فى تمة ذلك - .

الثالث - دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازى : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله . وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامهم معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها . ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والمامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملاً ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيمّمّ الهلاك ، ويمظم البلاء . وكلما تختبر عامياً - وأكثر الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجاهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل ، وجد جاهلاً بالعمض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتنأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبنوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمأثرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويمم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أي لا ملائكة

من أهل السماء. رد لقول المشركين<sup>(١)</sup> : (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) . وهذا كقوله<sup>(٢)</sup> تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَمُ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) . وقوله<sup>(٣)</sup> : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله<sup>(٤)</sup> : (قُلْ مَا كُنْتُ بِذَعَا مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتمج بقوله تعالى : (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة .  
والقرى : جمع قرية ، وهي على ما في (القاموس) : المصر الجامع . وفي (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قراراً ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لأنهم من أهل البوادي الذين هم أجفئ الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المهود المعروف : أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي . ولهذا قال تعالى<sup>(٥)</sup> : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحل من أهل العمور .  
وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكُّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذبة . كقوله تعالى<sup>(٦)</sup> : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَمْقُلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

(١) [ ٤١ / فصلت / ١٤ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٠ ] . (٣) [ ٢١ / الأنبياء / ٨ ]

(٤) [ ٤٦ / الأحقاف / ٩ ] . (٥) [ ٩ / التوبة / ٩٧ ] . (٦) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] .

قال ابن كثير : أى وكما نجيئنا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .  
« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فعملوا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بين تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتهم إذا تمادى تكذيبهم ، تبيهاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا . يعنى : الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » يقرأ ( كُذِّبُوا ) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم . ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى ( ظَنُّوا ) - على ما اختاروه - للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرًا ، وتلا قوله تعالى <sup>(٢)</sup> : ( وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ) وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا الكلامه وجوهاً :

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزمخشري : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهيجس في القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة في التراخي والإمهال ، على طريق الاستمارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما ، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابي : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكذَّبُ بالوحي ، ولا تشك في صدق الخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر ، وشدة استنجاز ما وعدوا به - توهموا أن الذي جاءهم من الوحي كان حساباً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط في تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذي بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتي بالوحي . والمراد بـ ( الكذب ) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد ( وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل ( وظنوا ) الرسل .

وقال أبو نصر القشيري : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل ، فصرفوه عن أنفسهم . أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذي الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعده الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معول عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تووّل عليه .

قال ابن حجر : وعجب لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم للزخشرى في توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أى : فرواه البخاري<sup>(١)</sup> في تفسير البقرة بلفظ : ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيلي عنه : كالوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاري<sup>(٢)</sup> أن عائشة كانت تقرأ ( كذبوا ) مشدودة ، وتناولها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها ( كذبوا ) مخففة ، فقالت : معاذ الله !

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمة والكسائي . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين .

وقوله تعالى : « فَفُجِّيْ مَن نَّشَاءُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ \* ( ففنجي ) بالتخفيف والتشديد . وقرئ \* ( فنجا ) .

« وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنًا » أى عذابنا . « عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ  
وَلَكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً  
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء  
وأممهم . ورجح الزمخشري الثاني [بقراءة (قصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح  
مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار  
مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مر في (أضغاث أحلام) . وسندكر وجوه العبر  
منها بعمونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَى » أى :  
يختلف . « وَلَكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها  
من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .  
قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود  
أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات ، عما  
يرويه الناس ، إلا أنها توافقت في الجملة ، وتصدقها في الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن  
النبي اخترعها بمقله ، بل اسألوا أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية في  
كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبي  
صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص  
القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما ، كلا ! إذ لو صح



هذا لما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) . فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله . فلأمنافة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، ومخالفته لها في بعض الجزئيات - كما قلنا - ويجوز أن يكون المراد بقوله : « تصديق الذي بين يديه » تصديق الحق الذي عندهم ، لا كل الذي عندهم ، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، ويستحيل أن يكون مصداقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أى . تبیان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبتغي به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهَدَى » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بصديقون به ، ويممـلون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

### خاتمة في مباحث مهمة

الأول - فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص .

قال في ( الباب ) : الاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكير . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الحب بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتعليمه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن النيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

(١) [ ٢٧ / النمل / ٧٦ ] .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، حجة الفائدة ؛ وجليلة العائدة ، تحذو بكل امرئ أبي إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر في حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سيرته ، وتمسكه بمرى التقوى والفضيلة ، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة ، التي ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فملى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسم ذروة المجد في هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة في الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبي ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبت المشار إليه في قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ ... ) الآية . وإنما أفردت على حديثها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم في سورة واحدة ، لمفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فخلصها : فرج بمد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره ، وشقات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجُبِّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضر ، وفلة ذات اليد <sup>(٢)</sup> ( مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضَّرَّ ... ) الآية . ثم تداركهم الله بالفهم ، وجمع شملهم ، وردَّ بصر أبيهم ، واختلف قلوبهم ، ورفع ما نزع به الشيطان . وخلص يوسف عليه السلام ، وبكى من كاده ، واكتنفا بالعصمة ، وبرأته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم انجرت في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وثباتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [ ١١ / هود / ١٢٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٨٨ ] .

ما أنجرت في هذه القصة الجليلة من المجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومومى عليهم السلام ، وما جرى في أمهم ، فلماذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طي ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله <sup>(١)</sup> تعالى : ( وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... ) إلى قوله : ( أَمَنَّا ) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجمالها أشبه شئ بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم <sup>(٢)</sup> : ( وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص - والله أعلم - .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلفه ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمل ذلك ! وبوضحه ختم السورة بقوله : ( حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ . . . ) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أوامر الله فيه - كذا في تفسير البرهان للبقاعي مخلصاً - .

وجاء في كتاب ( النظام والإسلام ) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله : طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شمعى ! ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [ ٢٤ / النور / ٥٥ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٠٣ ] .

المؤرخين . القصص في كل أمة ، عليها مدار ارتقاؤها ، سواء كانت وضعية أم حقيقة ، على السنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب ( كلیلة ودمنة ) ، وما والاها من القصص الناصجة على منواله في الإسلام ، ككتاب ( فاكهة الخلفاء ) ، و ( مقامات الحریری ) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهي - لا جرم - أعلى منالاً ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سميت إليه ، والقذوة الحسنة للكمل الخاصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسهم ، لوقوع مواردنا ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فلهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت في سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلانكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر ؟! ومالنا ولها إذن ؟! تالله إن هذا هو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم ، وما سطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصون في خرافتهم ، فذلك سبيل حائد عن الجادة ، يضل فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبيأ فتية الكهف ، وكيف يقول <sup>(١)</sup> : ( سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُتِبَ لَهُمُ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَنَامَ لَهُمْ كُتِبَ لَهُمْ قُلُوبُ رَبِّ أَعْلَمَ بِمَعْنَاهُمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يمول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافمها ، والعبر المبصرة للسامعين ( أَقْدَرُ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) .

(١) [ ١٨ / الكهف / ٢٢ ] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نمتد إلا على البرهان . تأمل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معمول عليها . فلا ترى قصة إلافها توفيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذّ القلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمره . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس ، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يحتبرون أبناءهم ، ويتأملون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمل في قصة الإخوة ، وحديث القميص والحبّ والذئب والدم ، لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسي ، والخلق المرضي ، والجلال الظاهر على ملامحه . فيميبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه ، دلالة على أن هذه سنة في السكون لا تغادر نبيا ، ولا حكما ، ولا عالما مهما حسنت أخلاقه ، وجمل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها      إلاّ عداوة من عاداك من حسد .

جرت تلك السنة في الأناسي : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز ، وكيف عفت مع الشباب ، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، وأتمم بالفضيلة ، فتوآزى جماله الباطني والظاهري . . ! وانكشف بهذا القدر الآن ، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح ، التي تضمنتها تلك القصة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل في كلام الحكماء - أولهم وآخرهم -

تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولاً فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للآخرتها ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله !

بايع الصحابة - عليهم رضوان الله - الخليفة الأول ، فأخذ قشاشاً وذراعاً وذهب إلى السوق في الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضمت أهلي ، فأنا للمسلمين أضيّع ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر في شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين - إذا ولّوا رجلاً إدارة بلادهم - أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف ذكرت في الكتب السماوية ، ورتبت في القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبهاً لبنى الإسلام على معرفة هذا العلم وانقائهم الأكفاء للأعمال العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنقوان الشباب مع الصديق . وإيت شعري ! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدينة المصريين وزخرفهم وجمالهم ، وعبد الله وحده ، ونسى ما يراه من أبي الهول وأبيس والأرباب المتفرقة ؟ ! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كل جانب ، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ، فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كل جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله ، وبث عقيدته بينهم ، ظاهراً بظهر الكمال والإحسان والمطف عليهم<sup>(١)</sup> : ( قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ... ) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] .

لذهابهم ، وبفضه لأصنام المصريين ، ونحوهم ، فقال<sup>(١)</sup> : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . ) الآية . ثم أخذ يذكرهم أن تفرق وجهة الأمة ضلال في السياسة ، وأن توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال<sup>(٢)</sup> : (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تسُدْ أمة في الوجود إلا برجالٍ يوحدون وجهتها أيًا كانت فيؤمّنون مقصداً واحداً والتفصيل لا يخفى على أولى الأبواب . . .

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكلٍ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر . ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تم له ، عليه السلام ، الأمران - سياسة النفس والعشيرة - أخرج من السجن معظماً مبعجلاً وترقى من تعليم الصعلوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يرهبهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والمعجاف ، وأرشدهم إلى خزن البروسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكياسة في علوم العمران ، وتدريب أمر الأمة ، إما يوحى وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإما بتعليم وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقّر تعليم الأصغر ، فإنه لا بد يوماً ما أن يصل إلى الأكبر ، كما في حديث<sup>(٣)</sup> هرقل مع أبي سفيان ، وتعليم الصديق من في السجن . فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبي سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج السكال في سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق ، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل السكال من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج السكال إلى حضيض النقص !

وهذه قصة يوسف - الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة - جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعتمد يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ليس الجزاء على الأخلاق والسكال خاصاً بالآخرة ، بل في الدارين <sup>(١)</sup> : ( وَكَذَلِكَ مَسَكْنَا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ \* وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) .

هذه هي الأخلاق الفاضلة ، ذكرت في التزويل نموذجاً ، في غضون هذه السيرة ، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضئعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غييض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر في أولها <sup>(٢)</sup> ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصغ إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقاً ، ولتزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكام : لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق ممهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعمون خصلة ذكروها . كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته . وإن كان رئيساً فاضلاً

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .



لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجهال النبيين . ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدىً لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولندكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتسكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على نقائص الكتاب العظيم ، وحباً في نظرهم في القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنى به وبجود اللهو واللعب !  
أهم ما شرطه الحكاء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ - العفة عن الشهوات ، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ )<sup>(١)</sup> .

٢ - الحلم عند الغضب ، ليضبط نفسه ( قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَمَرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ )<sup>(٢)</sup> .

٣ - وضع اللين في موضعه ، والشدّة في موضعها ( وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَفِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ \* فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ )<sup>(٣)</sup> ، والصدر اللين والعجز للشدّة .

٤ - ثقته بنفسه ( اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ )<sup>(٤)</sup> .

٥ - قوة الذاكرة ليمكّنه تذكّر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم ( وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ )<sup>(٥)</sup> .

(١) [ ١٢ / يوسف / ٢٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٧ ] .

(٣) [ ١٢ / يوسف / ٦٠ و ٥٩ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٥٥ ] .

(٥) [ ١٢ / يوسف / ٥٨ ] .

٦ - جودة المصورة والقوة الخييلة حتى تاتى بالأشياء تامة الوضوح ( إِنَّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ )<sup>(١)</sup> .

٧ - استعماده للعلم ، وحبّه له ، وتمكّنه منه ( وَانْتَبَعْتُ مِلَّةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ )<sup>(٢)</sup> ، ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ )<sup>(٣)</sup> ، ( رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ )<sup>(٤)</sup> .

٨ - شفقتة على الضمفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . مخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : ( يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ... )<sup>(٥)</sup> الآية ، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما ، فالأول بقوله : ( لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ )<sup>(٦)</sup> ، والثاني بقوله : ( إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ... )<sup>(٧)</sup> الآية ، وشهدا له بقولهما : ( إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ )<sup>(٨)</sup> .

٩ - العفو مع القدرة ( قَالَ لَا تَنْتَرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يُعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )<sup>(٩)</sup> .

١٠ - إكرام المشيرة ( وَانْتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ )<sup>(١٠)</sup> .

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

- (١) [ ١٢ / يوسف / ٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣٨ ] .  
 (٣) [ ١٢ / يوسف / ٢٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ١٠١ ] .  
 (٥) [ ١٢ / يوسف / ٣٩ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] .  
 (٧) [ ١٢ / يوسف / ٣٧ ] . (٨) [ ١٢ / يوسف / ٣٦ ] .  
 (٩) [ ١٢ / يوسف / ٩٢ ] . (١٠) [ ١٢ / يوسف / ٩٣ ] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة ( فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ )<sup>(١)</sup> .

١٢ - حسن التدبير ( فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ... )<sup>(٢)</sup> الآية .

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان ( وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْمَعُوا بَضَاعَتَهُمْ ... )<sup>(٣)</sup> الآية ، ودبر الحيلة المعجبية بمسألة الصواع والالتهم بالسرقة ليضم أخاه إليه ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ... )<sup>(٤)</sup> الآية ، وعامل الحكوميين بشرعهم ودينهم وملتهم وعاداتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمّة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعاً لما رسمته الشريعة الفراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوه ( قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ )<sup>(٥)</sup> الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : ( مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَزِغَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ )<sup>(٦)</sup> ، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم . وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر - فهي أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والمقلاء !

تالله ! ما أجل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شمري كيف يقول الله بمدّها ( نَزِغَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ )<sup>(٧)</sup> ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

(١) [ ١٢ / يوسف / ٥٤ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٧ ] .

(٣) [ ١٢ / يوسف / ٦٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

(٥) [ ١٢ / يوسف / ٧٤ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

(٧) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

وضوحها وبساطتها لدوى النظر السطحى والبُله الغُفل ، بما أعطاه هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته !

ومن العجيب الغريب تدبير هذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ )<sup>(١)</sup> . وهذه : - وإيم الله - هى بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف فى الأمور الخفية ، وإلباسها اللبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولاً للبيوت من أبوابها ؛ والكن بينهم وبين هذا النبى بون بعيد . . . ! فانظر كيف تمطى هذه القصة هذه الأمور العجيبة !

لعمرى ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة بتخييل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله فى أول السورة ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ )<sup>(٢)</sup> ، ويقول فى آخرها : ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ )<sup>(٣)</sup> ويقول : ( : قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ )<sup>(٤)</sup> ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح الله فقال : ( حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ . . . )<sup>(٥)</sup> الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص ونمرااتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . . )<sup>(٦)</sup> الآية . وهذه ترشدك - إن كنت من ذوى المهمة العالية - أن

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٣ ] .

(٣) [ ١٢ / يوسف / ١٠٢ ] . (٤) [ ١٢ / يوسف / ١٠٨ ] .

(٥) [ ١٢ / يوسف / ١١٠ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ١١١ ] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تمجّل بالرآسة حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبي عليه السلام أياما وأياما ، ولبس للحوادث أنوابا وأنوابا ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعوها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارىء : سبحان من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر وروني القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر في السموات والأرض فيمرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون ، وتلا القرآن - وهو كلام مبدع الكون - وتلطف في تصوير المعاني ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلا عن العامة ! فما للعامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبينون ؟ وما للناس لا يكادون يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاقاً لهمم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة - على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص فأعرض ! وجلي أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجمها من أفق سماءها إلى أرض ضمتها ، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرّاً . فيقصدها هذا للنفات ، وذلك لقصة بسيطة ، وآخر تسليمة وتضييماً لازماً ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعراها وصرفها وبلاغتها ،

واسكن هذا أرقى مما قبله - فقد سار في الطريق وهي الألفاظ ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدت تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه ! وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقى بها الحرت من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء ؟ وإلى أى مسافة يرتفع ، وما الملة فيه ، ومن أين يأتى الفحم الحجري ، وفي أى الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم ! وهذا - لعمري الله - انعكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاختطفته النون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

### المبحث الثانى

احتج من جوز المعصية على الأنبياء - وهم الكرامة والباقلاني - بما جرى من إخوة يوسف ويقيمهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في ( الملل والنحل ) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاء قط - في أنهم أنبياء - نص لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضى الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن ، قال عز وجل <sup>(١)</sup> : ( وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ كُمْ

(١) [ ٤٠ / غافر / ٣٤ ] .

به . . إلى قوله - مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظام ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين - أباهم وأخاهم - قد استغفرا لهم وأسقطا القريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا - من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء - قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيه أنه قال لهم : ( أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا )<sup>(١)</sup> ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ! إذ توقيف الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًا مكانًا ! وقد عاق ابن نوح أباه بأكثر مما عاق به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء مَنْ لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافه بصحة نبوته ! ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبيًا ، وبين التكذيب بنبوة من صحت نبوته منهم ! فإن ذكروا في ذلك ما روى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : ( إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء ! ) فهذه غفلة شديدة وزلة عالم ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها - أنه لو كان ما ذكره لا يمكن أن ينبا إبراهيم في المهد كما نبي عيسى عليه السلام ، وكما أوتي يحيى الحكم صبيًا ؛ فعلى هذا القول لمل إبراهيم كان نبيًا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا !..

وثالثها : أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًا ، وحاشا لله من هذا !..

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [ ١٢ / يوسف / ٧٧ ] .

أبَاهُمْ نَبِيًّا ، وَأَوْلَادَ أَوْلَادِهِمْ أَنْبِيَاءَ أَيْضًا لِأَنَّ آبَاءَهُمْ أَنْبِيَاءٌ وَهُمْ أَوْلَادُ أَنْبِيَاءٍ ، وَهَكَذَا ... أَبَدًا حَتَّى يَبْلُغَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا ! وَفِي هَذَا مِنَ الْكُفْرِ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحِجَّةُ وَثَبَتَ عَلَيْهِ - مَا لَا خِفَاءَ بِهِ - وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ . . . !

ثم قال ابن حزم .

وَذَكَرُوا - بِمَعْنَى الْكَرَامَةِ وَمِنْ وَافَقَهُمْ - أَيْضًا أَخَذَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَاهُ ، وَإِيحَاشَهُ أَبَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ أَقَامَ مَدَّةً يَقْدَرُ فِيهَا عَلَى أَنْ يَعْرِفَ أَبَاهُ خَبْرَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَقَامِي بِهِ مِنَ الْوَجْدِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَفْعَلْ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِلَّا عَشْرُ لَيَالٍ ! وَبِإِدْخَالِهِ صَوَاعِقَ الْمَالِكِ فِي وَعَاءِ أَخِيهِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ سَائِرُ إِخْوَتِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ هَتَفٍ <sup>(١)</sup> (أَيَّتُهُمَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وَهُمْ لَمْ يَسْرِقُوا شَيْئًا ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى <sup>(٢)</sup> (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي) ؛ وَبِحُدُودِهِ لَفِرْعَوْنَ ، وَبِقَوْلِهِ لِلَّذِي كَانَ مَعَهُ فِي السِّجْنِ <sup>(٣)</sup> (إِذْ كُرِّتِي عِنْدَ رَبِّكَ) قَالَ ابْنُ حَزْمٍ : وَكُلُّ هَذَا لَا حِجَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، وَنَحْنُ نَبِينُ ذَلِكَ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ تَعَالَى نَتَأَيَّدُ : أَمَّا أَخْذُهُ أَخَاهُ وَإِيحَاشَهُ أَبَاهُ مِنْهُ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ ذَلِكَ لِيُرْفَقَ بِأَخِيهِ وَلِيَعُودَ إِخْوَتَهُ إِلَيْهِ ، وَلِيُعْلِمَهُمْ لَوْ مَضَوْا بِأَخِيهِ لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ وَهُمْ فِي مَمْلَكَةٍ أُخْرَى ، وَحَيْثُ لَا طَاعَةَ لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا لِمَلِكِ مِصْرَ هُنَاكَ ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِاجْتِمَاعِهِ وَجَمْعِ شَمْلِ جَمِيعِهِمْ ! وَلَا سَبَبَ إِلَى أَنْ يَظُنَّ بِرَسُولِ اللَّهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي أَوْتِيَ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ بِالتَّوْبِيلِ - إِلَّا أَحْسَنَ الْوَجُوهِ . وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفْنَا نَصَّ بِخِلَافِ مَا ذَكَرْنَا . وَلَا يَحِلُّ أَنْ يَظُنَّ بِمُسْلِمٍ فَاضِلٍ عَقُوقَ أَبِيهِ ، فَكَيْفَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ وَأَمَّا ظَنُّهُمْ - أَنَّهُ أَقَامَ مَدَّةً يَقْدَرُ فِيهَا عَلَى تَعْرِيفِ أَبِيهِ خَبْرَهُ وَلَمْ يَفْعَلْ - فَهَذَا جَهْلٌ شَدِيدٌ مِنْ ظَنِّ هَذَا لِأَنَّهُ يَمْقُوبٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ عَمَلِ فِلَسْطِينَ ، فِي قَوْمٍ رَحَالِينَ خِصَاصِينَ فِي لِسَانِ

(١) [ ١٢ / يَوْسُفَ / ٧٠ ] . (٢) [ ١٢ / يَوْسُفَ / ٢٤ ] .

(٣) [ ١٢ / يَوْسُفَ / ٤٢ ] .



آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بعد فراقه أباه بما فعل ، ولا حتى هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبتهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذى ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملة واحدة ، ولسانا واحداً وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبرد ناهضة وراجمة ، فظن كل بيضاء شحمة<sup>(١)</sup> ولم يكن الأمر حينئذ كذلك ، ولكن كما قدمنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذى كان عم الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانتظر وعد ربه تعالى الذى وعده حين ألغوه فى الحب فأتوه ضارعين راعبين كما وعده تعالى فى رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ كَسَارُ قُورِنَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذى كان قد أدخله فى وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال<sup>(٢)</sup> : ( نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ ) وهو فى ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمته تقية وفى حق الاستنقاذ الله تعالى بحسن تدييره ، ولعل الملك أو بمض خواصه قد آمن به إلا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مرية فى أن ذلك كان مباحاً فى شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى<sup>(٣)</sup> : ( لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً فى شريعتهم بل كان فعلاً حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل ( ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمر ) انظر : أمثال الميداني ،

بالصفحة ١٥٦ من الجزء الثانى ( المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ )

(٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٢ ] . [ ٥ / المائدة / ٤٨ ] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلا أن الذى لا شك فيه أنه لم يكن سجد عبادة ولا تذلل وإنما كان سجد كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذى كان معه فى السجن <sup>(١)</sup> ( اذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ) فما علمنا الرغبة فى الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس فى قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل . لكنه رغب هذا الذى كان معه فى السجن فى فعل الخير وحضه عليه ! وهذا فرض من وجهين : أحدهما وجوب السعى فى كف الظلم عنه ، والثانى : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى <sup>(٢)</sup> ( فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ) فالضمير الذى فى ( أنساه ) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذى كان معه فى السجن ، أى : أن الشيطان أنساه أن يذكر ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عز وجل <sup>(٣)</sup> ( وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ) فصحّ يقيناً أن المذكّر بعد أمة هو الذى أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر . وحتى لو صحّ أن الضمير من ( أنساه ) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان فى ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء أوأما قوله <sup>(٤)</sup> ( هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) فليس كما ظن من لم يعين النظر حتى قال من المتأخرين من قال : ( إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة ) ومعاذ الله من هذا أن يظنّ رجل من صالحى المسلمين أو مستورهم ! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة فى قول أحدٍ إلا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم فى تلك الرواية إنما هى بلا شك عمن دون ابن عباس ، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذ إنّما أخذه عن لا يدري من هو ، ولا شك فى أنه شئ سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [ ١٢ / يوسف / ٤٢ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٢ ] .

(٣) [ ١٢ / يوسف / ٤٥ ] . (٤) [ ٢٢ / يوسف / ٢٤ ] .

كما قال تعالى<sup>(١)</sup> ( وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ) وكما يقول القائل : لقد هممت بك ، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها . وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قد القميص . والوجه الثانى : أن الكلام تم عند قوله ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال ( وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوة وعصمة الله عز وجل إياه . ولولا البرهان لكان يهيم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعل من ينسب هذا إلى النبي المقدس يوسف ، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك . وقد خشى النبي ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأتصاريين حين لقيهما : هذه صفة<sup>(٢)</sup> أو من الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام هم بالزنى وهو بسمع قول الله تعالى<sup>(٣)</sup> ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ) ! فنسأل من خالفنا عن الهم بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلا بد أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذا هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهم ييقين ! وأيضاً فإنها قالت<sup>(٤)</sup> ( مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق<sup>(٥)</sup> ( إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) فصح أنها كذبت بنص القرآن ، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً ، فما هم بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بين جداً ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال<sup>(٦)</sup> ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ) فصح عنه أنه قط لم يصب إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برمته لأنه كما قيل :

( وما محاسن شيء كله حسن ١١٠٠ )

(١) [ ٤٠ / غافر / ٥ ] . (٢) أخرجه البخارى في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ -

باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ . (٣) [ ١٢ / يوسف / ٢٤ ] .

(٤) [ ١٢ / يوسف / ٣٥ ] . (٥) [ ١٢ / يوسف / ٢٦ ] . (٦) [ ١٢ / يوسف / ٣٣ ] .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ١٣ - سُورَةُ الرَّعْدِ

سمّيت به لما فيها من قوله عز وجل<sup>(١)</sup> (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدالّ على الصفات السالبة والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور المكونية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن - قاله المهاجى .  
وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنية إلا قوله<sup>(٢)</sup> (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أولها إلى آخر<sup>(٣)</sup> (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا) مدنى وباقيها مكي . والله أعلم .  
وآيها ثلاث وأربعون .



(١) [ ١٣ / الرعد / ١٣ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] . (٣) [ ١٣ / الرعد / ٣١ ] .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَرَّ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الْمَرَّ » اسم للسورة ، ومحله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما الفصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فـ ( تِلْكَ ) مبتدأ كما إذا جعل ( المر ) مسروداً على نمط التعميد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « آيَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب المجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذٍ . وقوله تعالى « وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكلمة « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقيقة لمرافقه فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنى للمفعول ، والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لشأن جلالة المنزل وتشريف المنزل إليه ، والإيحاء إلى وجه الخبر - ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

في ( الَّذِي أَنْزَلَ ) وجهان : أحدهما هو في موضع رفع ، و ( الْحَقُّ ) خبره ، أو الخبر ( مِنْ رَبِّكَ ) و ( الْحَقُّ ) خبرٌ محذوفٌ ، أو خبرٌ بمد خبر . وثانيهما محله الجر بالمعطف على ( السِّكِّاتِ ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو في الصفة ، و ( الْحَقُّ ) خبرٌ محذوفٌ ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو في الصفات . وآخرون على جوازها ثناء كيد اللصوق ، أي الجمع والاتصال . لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة ، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت . وقوله تعالى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى <sup>(١)</sup> ( وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] ( اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ )

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السموات ، أي خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أي أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إما استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : \* أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني \* أو صفة لـ ( عَمَدٍ ) جيء بها إبهاماً ؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجح ابن كثير

(١) [ ١٢ / يوسف / ١٠٣ ] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى<sup>(١)</sup> (وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفلى . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى<sup>(٢)</sup> (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) وقد بين ذلك في قوله تعالى<sup>(٣)</sup> (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)<sup>(٤)</sup> والافتقار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى<sup>(٥)</sup> (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن من شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » يعنى : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعمته الجليلة . أى يبينها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ رَبَّكُمْ تَوْقِنُون » أى : لعلكم توفنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بدّ لَكُمْ من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء ؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

(١) [ ٢٢ / الحج / ٦٥ ] . (٢) [ ٣٦ / يس / ٣٨ ] (٣) [ ٨١ / التكاوير / ١ ] .

(٤) [ ٨٢ / الانقطار / ٢ ] . (٥) [ ٧ / الأعراف / ٥٤ ] .

### لطائف

الأولى - جُوزَ في قوله تعالى ( اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر ( يَدْبِرُ الْأَمْرَ ) . ورجح في ( الكشف ) الأول ، بأن قوله الآتي <sup>(١)</sup> ( وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات . وفي المقابل الخبرية متمينة ، فكذا هذا ايتوافقا والجملة مقررّة لقوله <sup>(٢)</sup> ( وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جملة وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : ( أَعْلَمَكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ ) . فالعنى أنه فعملها كلها لذلك .

الثانية - قال القاضى : قوله تعالى ( رَفَعَ السَّمَوَاتِ ... الخ ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لا بد وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسماني ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة - ( يدبّر ) و ( يفصل ) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنفان . أو الأول حال من ضمير ( ستخر ) والثانى من ضمير ( يدبّر ) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة . ولما قرر الشواهد العلوية ، أرَدَها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى :

(١) [ ١٣ / الرعد / ٣ ] . (٢) [ ١٣ / الرعد / ١ ] .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متممة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطیح الأرض وأنها غير كربة بالفعل . وأن من أثبت أنه مقتضى طبعها أورد بأنه ثبت كرتيها بأدلة عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كرتيها إلا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبلاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَارًا » متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبسماني والجبلي ...

قل الهامى : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لثلاث مجتمع فتضار متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ » أى : يابسبه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، ويطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالأخر الربيع « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى : فى مَدَّ الْأَرْضَ وما بعده « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ » أى آيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بد له من قادر حكيم ! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة النعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبر ذلك لمعايشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدكم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

### لطائف :

الأولى - قال الرازى : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تقولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوتها تنقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فتنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . ففى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله <sup>(١)</sup> ( وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ) .

الثانية - أشار الرازى إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة - فى قوله ( يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيهه إزالة نورالجو بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً - بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول - فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغامى . وعدة هذا فى تضاعيف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً - باعتبار أن ظهوره فى الأرض -

(١) [ ٧٧ / الرسائل / ٢٧ ] .

فإن الليل إنما هو ظلمها . وفيما فوق موقع ظلمها لا ليل أصلاً . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث المقد والإفضاح ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .  
وقرى ( يفتى ) من الغشبية - أفاده أبو السمود .  
ثم بين تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ،  
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أى : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قدر مدبر مريد حكيم في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهى نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفى ( القاموس ) النختلان ، فما زاد فى الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو .  
ويضم أو عام في جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر فى الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتية والفوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أى : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ » فتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحب . والمجرور إما ظرف لـ ( نفضل ) أو حال من بعضها ، أى : نفضل بعضها ما كولا ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ » أى : الذى فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن من قدر على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها حقائق ذات بهجة - قادر على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون فى القياس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلِإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَبِيٍّ خَلَقٍ جَدِيدٍ ،  
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَلِإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَبِيٍّ خَلَقٍ جَدِيدٍ » خطاب للنبي ﷺ ،  
أى : إن تعجب من شئ فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما  
عدد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرة يصغر عندها كل عظيم - أيقن بأن من قدر على  
إنشائها ولم يمتدح بخلقها ، كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره . فكان إنكارهم أعجوبة من  
الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا من نظر فى  
هذه الآيات ، وعلم قدرة من هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ،  
وهو أهون من هذه !

قال أبو السمود : والأنسب بقوله <sup>(١)</sup> ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ ) هو الأول و (عجب)  
خبر قدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذلك أمراً عجيباً .  
وقوله تعالى « أُولَئِكَ » أى المنكرون لقدرة على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ »  
أى : تمادوا فى الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ،  
وفيه تكذيب لخبره ورسله عليهم السلام « وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » أى : السلاسل  
فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلوا أفكارهم عن النظر فى هذه الأمور  
كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم . « وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ » .

(١) [ ١٣ / الرعد / ٦ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فالحكم لا يعقبون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و (المثلاث) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم التاء جمع مَثَلَةٌ - كسمرة وسمرات - وهى المقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المائلة كقوله ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ) ، أو هى مأخوذة من المثل بمعنى القصاص . يقال : أمثاقه وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها . وقرئُ بفتح الميم وسكون المثلثة ، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئُ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئُ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » من الناس من حمل المغفرة على التعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلا حيث دلّ الدليل على التقييد في غير الواحد فإن ظلمه - أعنى شركه - لا يغفر . . وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوى . وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه<sup>(١)</sup> : ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه ( إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولا استعمال القرآن . وللزومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة ) ولا يخفك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراد الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولا استعمال القرآن ، تحكّم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّله . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد الزوم وتهويل خطبه - فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالإلزام صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بمضاهيه ، فهذه الآية في معناها كتابة ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ... ) الخ . فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، ففَقَطُّنْ ولا تكن أسير التقليد !..

ولما بين تعالى سمة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه ، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » أى : لمن شاء ، كما قال تعالى<sup>(٢)</sup> : ( فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ) . وقال تعالى<sup>(٣)</sup> : ( إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) وقال سبحانه<sup>(٤)</sup> : ( نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٤٥ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٤٧ ] .

(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٦٧ ] . (٤) [ ١٥ / الحجر / ٤٩ و ٥٠ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستعجلون بالسبئية المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عسّل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمّاً لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخمّر لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يمدوها من جنس الآيات وقالوا عناداً :

« لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويدرون ، وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلا البلاغ ، لا إجابة المقترحات ! « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى : نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ترميز بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعاً من الرسل . فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله ، عليهم السلام ؛ أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم ، هو الله سبحانه ، فما عليك إلا إنذارهم لاهديتهم . وإيتاؤهم الإيمان وصدّهم عن الجحود . فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى <sup>(٢)</sup> : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ؛ أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشـد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي بمنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [ ٣٥ / فاطر / ٢٤ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٧٢ ] .

لا يفيد إزالتها هداية ! قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ) ( وَمَا يُشْمِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ) <sup>(٢)</sup> مع ما يستتبع الإصرار بمدّها من الأخذ بلا إهمال ! ( سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ) <sup>(٣)</sup> .

قال الشهاب : وجوز عطف ( هادٍ ) على ( منذر ) وجعل التعلّق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يحمل خبر مبتدأ مقدر ، أي : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ( اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ )

[٩] ( عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ )

« اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مسأّنة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجّتهم فلمعلّمهم يهتدون بأنّه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فقال — تقضيّه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن ( الهادى ) بمعنى ( الداعى إلى الحق ) . وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله ( هادٍ ) أو مقررّة مؤكدة لذلك — كذا في ( العناية ) .

وأشار الرازى إلى أن الآية : إما مقصّلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقترحهم عناد وتمنّت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلا عنادًا ، فلذا لم يجابوا

(١) [ ١٧ / الإمراء / ٥٩ ] . (٢) [ ٦ / الأنعام / ١٠٩ ] . (٣) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٢ ] .



إليه . وإما متصلة بقوله ( وَيَسْتَمِعُونَكَ ) يعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ ( ما ) فى قوله تعالى ( مَا تَحْمِلُ ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكرورة وأنوثة ، وتعام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والترقية .

« وَمَا تَمِيضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أى : تأخذ زائداً . قال الزمخشري : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد . وقد تستعمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابعاً أربعة فى بطن أمه ، ومنه جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر . وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » أى : بقدرٍ وحيدٍ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى (١) : ( إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) وقوله (٢) ( وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ) وذلك أنه تعالى خص كل مكون بوقت وحال معينين ، وهما الوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضى ذلك : « عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهد الحس « الْكَبِيرُ » أى العظيم الشأن الذى كل شىء دونه « الْمُتَعَالِ » أى المستعلى على كل شىء بقدرته . أو المنزه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القراء على حذف ياء ( الْمُتَعَالِ ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما على الأصل .

(١) [ ٥٤ / التمر / ٤٩ ] . (٢) [ ٢٥ / الفرقان / ٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ  
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ » أى في نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ » أى : طالب الخفاء في مخبأ بالليل في ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب في سره ، أى في طريقه يبصره كل أحد .  
لطفية :

قيل : إن ( سواء ) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان ( سارب ) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .  
واجب عنه بوجهين : ( الأول ) أن ( سارب ) معطوف على ( من هو ) لا على ( مستخف )  
كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و ( الثانى ) أنه عطف على ( مستخف ) . إلا أن ( من ) في معنى الاثنين كقوله <sup>(١)</sup> :  
\* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ \*

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين ( من ) موصولة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق السكل .  
وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية ؛ والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَمَشَّ . فَإِنْ وَائِقَتْنِي لَا تَحُونِي نَكُنْ مِثْلَ مَنْ ، يَذِئْبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وَاطْلَسَ عَسَالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبًا دَعَوْتُ بِنَارِي مَوْهِنًا فَأَنَانِي

تكرر الموصول في الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَمَا أَذِرِي مَا يُفْعَلُ لِي وَلَا يَكُمُ )  
والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه . لأن الجملة الثانية  
لو قدرت داخلية في صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفي موقع ؛ وإنما صحب في الأول  
الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضي الله عنه<sup>(٢)</sup> :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ !  
أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر في ( الانقصاص ) وهو وجيه جداً . وأما تضعيف غيره له ،  
ب لزوم حذف الموصول وصدر الصلة مماً ، وأن النجاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن  
اجتماعهما منكر-فهو المنكر . لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التجاكم في كل فن-  
ومحجة ، والجود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها-من التمصب واللجاج ، والغفلة عن مقام  
التنزيل في الاحتجاج !  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ١١ ] ( لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ  
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا  
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ )

« لَهُ مُعَقَّبَاتٌ » أى : إن أسراً أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

( ١ ) [ ٤٦ / الأحقاف / ٩ ] . ( ٢ ) من قصيدته التي يهجو بها أبا سفيان . ومطلعها :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بر من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وآخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شراً ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . ف ( من ) تمليلية أو بمعنى باء السببية . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى ( الصحيح )<sup>(١)</sup> : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .

وفى الحديث الآخر<sup>(٢)</sup> : إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرمهم !

و ( المعقبات ) جمع معقبة من ( عقب ) مبالغة فى ( عقب ) فالتعميل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الماعل ، لا للتعدية . لأن ثلاثيه متعدة بنفسه وأصل معنى ( المعقب ) مؤخر الرُّجُل . ثم تجوز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبْرَهُ وَقَفَّاهُ . وقيل : هو من ( اعتقب ) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردوه بأن التاء لاتدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والسكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرهما . والتاء فى ( معقبة ) واحدة ( المعقبات ) للمبالغة لالتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ - باب فضل صلاة العصر ،

حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ - باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافظة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ ( طبعنا ) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يدي من أصول السنة .

أو هي صفة جماعة وطائفة . و ( مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ) ظرف مستقر صفة ( مُعَقَّبَاتٌ ) أو ظرف لغو متعلق بها . و ( مِنْ ) لابتداء الغاية أو حال من الضمير الذى فى الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله ( وَمِنْ خَلْفِهِ ) . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ ( يَحْفَظُونَهُ ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أى تحفظ ما قدم وآخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون ( يَحْفَظُونَهُ ) صفة لـ ( مُعَقَّبَاتٌ ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

### تنبيهات :

الأول - ما قدمناه فى معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذى له حرس من بين يديه ومن خلفه .  
قال الزمخشري : أى يحفظونه فى توهمه وتقديره ، من أمر الله . أى من قضايه ونوازله .  
أو على التهكم به .

قال الرازى : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني . والمعنى : أنه يستوى فى علم الله تعالى السر والجهر ، والمستخفى بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهجاً بالمعقبات - وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه - لم ينجبه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بد أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاينة ابصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرُونَ على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المسكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يعمولوا فى دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد :  
( وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . . ) الآية .

الثانى : قدمنا أن الضمير فى ( لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ) لمن أسرّ أوجهر . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده ( لمن ) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داعٍ . وقيل : الضمير ( لمن ) الأخير ، وقيل : للنبى لأنه معلوم من السياق .

الثالث - أشار الرازى فى معنى الآية الأشهر إلى سرّ اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعى القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يمتد جلاله الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردعُ أكمل . ١

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أى : من العافية والنعمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » أى : من الأعمال الصالحة أو مملكتها ، التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضعافها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أى : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أى : فلا ردّ لقضائه فيهم « وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أى : بلى أمرهم فيدفع عنهم السوء الذى أَرَادَهُ اللهُ بِهِمْ بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإيدان بأنهم بما يباشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه - أفاده أبو السمود .

تنبيه :

فى هذه الآية وعيد شديد وإذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بأدابه وسنته القويمة ، حلّ بهم ما ينقلهم إلى الحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهى قوتهم ، ويسلط عدوهم !

وفي حديث قدسيّ عند ابن أبي حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلّا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .  
ولابن أبي شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت ، كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلّا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي ، إلى ما يحبون من رحمتي .  
وقال القاشانيّ : لا بدّ في تغيير النعم إلى الفقم ، من استحقاق جليّ أو خفيّ .  
وعن بعض السلف : إن الفارة مزقت خفيّ . وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله على ! وتمثّل بقول الشاعر <sup>(١)</sup> :

\* لو كفتُ من مآزِنٍ لم تَسْتَبِخْ إِبِلِي \*

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام في ذلك ، الإمام مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلاميّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنّما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزليّ . لا يتغير شيء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل ينبغي أن يحجي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبي ﷺ <sup>(٢)</sup> : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

(١) هذا مطلع الحماسة الأولى وعجزه :

\* بَنُو اللَّقَيْطَةِ مِنْ ذُهْلٍ بَنِ شَيْبَانَا \*

وقائله بعض شعراء بلنغير ، واسمه قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ .

قال المرزوقيّ : ومعنى البيت : لو كفتُ مازنيّاً لم تُفِرْ بَنُو اللَّقَيْطَةِ عَلَى إِلِي .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١٦ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب الصدقة في الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ( وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد . لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أضاف اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزؤن بها . ففصل بين الأمرين ( الأشخاص والأمم ) فصلاً لا مجال معه للاخلط بينهما .

فأما النعم التي يمتنع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين ، أو الفقر والضعف والفقء والفقد ، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى ! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابهم مصيبة ، عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : ( إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) ! فلا غضب زبء ، ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا في ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى المادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم . وارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب . والمساكنة عند الناس بالسمى في مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر . . .

أما شأن الأمم فلايس على ذلك ؛ فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٠ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب ذكر عذاب القبر في صلاة الكسوف ،

حديث رقم ٨ ( طبعنا ) .



إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سمادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة<sup>(١)</sup> ( وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ) وإن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقتها ذهبت السمادة على أثره وتبمته الراحة إلى مقمره ! واستبدل<sup>(٢)</sup> الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون<sup>(٣)</sup> ( وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا تكشف لما نزل إليهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزله من سماء الرحمة برُسل الفكر والذكر والصبر والشكر<sup>(٤)</sup> ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) ( سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا )<sup>(٥)</sup> . . . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقاؤه<sup>(٦)</sup> . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة . . . !

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٤٥ ] . (٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل ،

أن تقرن الباء بالمبدل منه ( حاشية الطبعة الرابعة عشرة ) . (٣) [ ١٧ / الإسراء / ١٦ ] .

(٤) [ ١٣ / الرعد / ١١ ] . (٥) [ ٣٣ / الأحزاب / ٦٢ ] .

(٦) جاء في (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذي رواه البخاري : أن عمر بن الخطاب ،

كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ .

قال الشوكاني : وقد بين الزبير بن بكار ، في الأنساب ، صفة مادعا به العباس في هذه الواقعة

والوقت الذي وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ .

انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث ( طبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ،  
ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ،  
ويشق الفلك ببيكانه ، وهو ولع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من  
الحق شيئاً .. !

ولما خوف تعالى العباد بإزال مالا مردّ له ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله .  
فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصواعق « وَطَمَعًا » أى بالمطر أن يحيى  
النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح  
سامعوه من العباد الراجين للمطر مقلبين بحمده ، أى : يضجون به ( سبحانه الله والحمد لله )  
فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازياً للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى  
دلالاته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب للحمده . فيكون الإسناد على حقيقته والتجوز  
في التسبيح والتحميد . إذ شبه دلالاته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والمجاز بالتسبيح والتنزيه  
اللفظي . ودلالاته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازي : الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص . والتسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ،  
ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً . وهو معنى قوله تعالى <sup>(١)</sup> ( وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أى : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَرُسُلُ الصَّوَاعِقِ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أى : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » بمعنى الكفرة المخاطبين في قوله تعالى ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ) وقد التفت إلى الغيبة إيداناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتمديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين . أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيئته تعالى ، و ( هم ) أى الكفرة الذين حكيت هتائنهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ، يجادلون في شأنه تعالى ، بإنكار البعث واستمجال العذاب ، استهزاء واقتراح الآيات . قالوا لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى ( هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ ) أفاده أبو السعود .

أى : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية . وأنتم تجادلون فيه و ( الجدال ) أشد الخصومة ، من ( الجدل ) بالسكون - وهو قتل الجبل ونحوه ، لأنه يقوى به وتشتد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أى : والحال أنه شديد الماحلة والمأكرة والمسايدة لأعدائه . يأتينهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من ( تحكُّه ) إذا كاده وعرضه للهلك ، ومنه ( تمحل الكذا ) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تفصيلاً :

ذكر في العلم الطبيعي : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموجات السحب

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٤٤ ] .

ومصادمتها ابعضها : فيحصل في الهواء اهتزاز قوى ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب ، يطول سماعنا الصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة . فتمت مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمن ضررها . فإن لم يمض بينهما شيء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق في آن واحد ، أمكن أن يصاب بالصاعقة في مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهرباء إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهرباء السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هي البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعقت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازىّ الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت في العلم الطبيعى بما يدفع المناقاة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فليسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالماقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لاغيره . لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف سوء فوه الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والاتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة . وفيها إيدان بملاستها للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمنزل من شائبة البطالان والضياع والضللال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى ، فى عدم النفع والجدوى بقوله : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى : الأصنام الذين يدعوه المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مده يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء حماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظماه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، حماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ! والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيتهم ، أخيب ما يكون أحد فى سميته لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آهتهم - حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطراب فى عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك فى الحسرة - بحال ماء برأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة ظمأ وشدة خسران والتشبيه على هذا من المركب التمثيل فى الأصل ، أبرز فى معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة في التخسير والتحسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر ، أى : لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير في ( هو ) للماء و ( بالغه ) للفم ، وقيل : الأول للبأسط والثاني الماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما في قوله <sup>(١)</sup> :  
تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ  
« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم « إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى :  
في ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ  
وَالْآصَالِ )

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ  
إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينفق الجلاله وإرادته وتصريفه  
المسكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل ، طائعين وكرهين لا يقدر أن يمتنعوا  
عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تنصف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والى  
(١) رواية البيت هكذا :

فَنَاهَا لِقَبِيضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ . . . . .  
انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ ( طبعة بيروت ) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى ( طبعة المعارف ) .  
والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَجَلْ أَيْهَا الرِّبْعُ الذِّى خَفَّ آهْلُهُ لَقَدْ أَدْرَكَتْ فَيْكَ النُّوْى مَا تَحَاوَلُهُ  
يُمدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال! وقوله « بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأييد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو يقال التخصيص لأن امتدادها وتقلصها فيهما أظهر . هذا ما جرى عليه الأكثر فى معنى ( السجود ) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسللاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى ( تنوير الاقتباس ) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجمل ( طوعاً وكرهاً ) نشرّاً على ترتيب اللف . قال ( طوعاً ) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و ( كرهاً ) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال ( طوعاً ) لأهل الإخلاص و ( كرهاً ) لأهل النفاق . ثم قال : ( وظلالهم ) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل : إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حال الاضطراب وهو المعنى بقوله تعالى ( وَكُرْهًا ) يَخْضَعُونَ السَّجُودَ بِهِ سَبْحَانَهُ . قال تعالى<sup>(١)</sup> ( فَإِذَا رَكَبُوا فِي السَّمَاءِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفعالاً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه ، كما خلقها للجبال حتى اشتتلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلّى . كما قاله ابن الأنبارى . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها . وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مغلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [ ٢٩ / المنكبات / ٦٥ ] .

وهذه الآية كقوله تعالى<sup>(١)</sup> ( وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) وقوله<sup>(٢)</sup> :  
( أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ ... ) لآية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة - كذا في ( الباب ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ )  
« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قبليه عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعيينه للجواب ، فهو والخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بد لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم بعبادتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أى : إلزاماً لهم وتبكيثاً « أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى : أيمد أن علمتموه ربَّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشري .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى : لا يقدرُونَ على نفع أنفسهم ولا على دفع الضرر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذا عبادتهم محض العبث والسفه ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لما بين ضلالتهم وفساد

(١) [ ٣ / آل عمران / ٨٣ ] . (٢) [ ١٦ / النحل / ٤٨ ] .



رأيهم في الحجة المذكورة، يبين أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير، والجاهل يمثلها كالظلمات، والعالم بها كالنور ! وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَمَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجمعوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله : « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ (شركاء) داخله في حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفي قوله تعالى : ( خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ) في سياق الإنكار ، تهكم بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفي في الإنكار عليهم ، أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء في قوله تعالى ( كَخَلْقِهِ ) تهكم يزيد الإنكار نأكيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة ! « وَهُوَ الْوَاحِدُ » أى . المتوحد بالربوبية « الْفَهَّارُ » الذي لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ )

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « ماءً » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : فحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عاليا على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك في النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالأواني والآلات الحرب والحراث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكبير « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها ، مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقدوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادى ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

### تنبيهات

الأول - قدمنا أن هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لها . فمثل الحق وأهله بالماء الذى يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وأن ذلك ما كثر في الأرض باقٍ بقاء ظاهراً . يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقي والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ؛ وشبهه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه - وإن علا وارتفع وانفتح - إلا أنه أخيراً يضمحل ؛

وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شئ من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثاني - قوله تعالى ( بِقَدَرِهَا ) صفة ( أودية ) ، أو متعلق بـ ( سالت ) أو ( أنزل ) .  
وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن عليّ والأشهب وأبو عمرو ، في رواية ، بسكونها .  
الثالث - قوله تعالى ( اَحْتَمَل ) بمعنى حمل ، فالزيد بمعنى المجرّد - كذا قيل . ويظهر لي :  
أن إثاره عليه زيادة في معناه ، وقوة في مبناه !

الرابع - الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام . والإسناد إليه مجاز عقليّ ، كما في ( جرى النهر ) .

قال السمين : وإنما نكّر الأودية وعرف السيل ، لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو ( فسالت ) ، وهو لو ذكر لكان نكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبي حيان حيث قال : عرف السيل لأنه عني به ما فهم من الفعل . والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة ، إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نكرة . وكذا يضمن إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له ، أي الكذب . ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من ( فسالت ) .  
وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يبنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعروف عين ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تكلف - كما قيل - لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويماد عليه ضمير بمعنى آخر . سواء كان حقيقةً أو مجازياً ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصرف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكره أعليّ لا يختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

\* أخت النزالة إشرافاً وملتفتاً \*

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله ( أودية ) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس - قوله تعالى ( وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، اضرب مثل آخر . و ( زبد ) مبتدأ قدم عليه خبره ، و ( مِنْ ) فى ( مِمَّا ) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعية أى : هو بمضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخلّ بالتمثيل . وقوله ( فِي النَّارِ ) صفة مؤسّسة ؛ لأن الوقْد عايه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إ شمار بالمبالغة فى الاحتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التمرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسباً فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله ( وَمِمَّا يُوقِدُونَ ... ) الخ الإيجاز بحممه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ، إذا عتبر عن سبكه بإيقاد النار به ، المشعر بأنه كالخطب الخسيس ، وصوّره بحالة هى أخط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرب مثلاً للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله ( ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ) فوق كلاً من القامين حقه .

السادس - قدمنا أن قوله تعالى ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ) على حذف مضاف ، أى مثلهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والمثل به . كأن المثل المضروب عين الحق والباطل .

السابع : بدأ بالزبد في البيان في قوله ( فَأَمَّا الزَّبَدُ ) وهو متأخر في الكلام السابق ، لأن في التقسيم يبدأ بالمتأخر كما في قوله <sup>(١)</sup> ( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ . . . ) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكته فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باقٍ متأخر في الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصله الطيبي - كذا في ( العناية )

الثامن - قوله تعالى ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ) إما باعتبار ابتداء هذا على التمثيل الأول ، أو بجمل ذلك إشارة إليهما - كذا في أبي السمود .

التاسع - أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية في التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْنِ - نارِي ومَائِي - وهو قوله <sup>(٢)</sup> ( مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ . . . ) الآية ، ثم قال <sup>(٣)</sup> ( أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . ) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين في سورة الفجر مَثَلَيْنِ أحدهما قوله <sup>(٤)</sup> ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ . . . ) الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ؛ ولهذا جاء في ( الصحيحين ) <sup>(٥)</sup> : ( فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أي ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تردون ؟ فيردون )

(١) [ ٣ / آل عمران / ١٠٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ١٧ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ١٩ ] . (٤) [ ٢٤ / النور / ٣٩ ] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - باب إن الله

لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ ( طبعتنا ) .

النار، فإذا هي كسراب يحطم بمضها بمضاً) . ثم قال تعالى في المثل الآخر <sup>(١)</sup> (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْئٍ . . . ) الآية . وفي (الصحيحين) <sup>(٢)</sup> عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما يمثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجاب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروءوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى . إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما يمثنى، ونفع به فعمله وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفي (مسند الإمام أحمد) <sup>(٣)</sup> عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمهن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلم عن النار ! فتغلبنوني فتقتحمون فيها . . . وأخرجاه في (الصحيحين) <sup>(٤)</sup> أيضاً . فهذا مثل نارى . انتهى .

ولما بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كل منهما مآلاً . ترغيباً وترهيباً ، بقوله :

(١) [ ٢٤ / الفور / ٤٠ ] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علم وعلم ، حديث ٦٨ . وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ ( طبعنا ) .

(٣) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى ( طبعة الحلبي ) . والحديث رقم ٧٣١٨ ( طبعة المعارف ) .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٦ - باب الانتهاء عن المعاصى ، حديث رقم ١٦١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ ( طبعنا ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ  
مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ  
وَمَا أُوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ )

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته  
وطاعة رسوله ، والثوبة الحسنى كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ) فالحسنى  
مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا  
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف  
الأموال ، ليتخلصوا عما بهم . وفيه من تهويل مايلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل من  
أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ »  
أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَا أُوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى :  
المستقر . وفى قوله ( وَمَا أُوَاهُمْ جَهَنَّمُ ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانقحامها من مقابلتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا  
يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ )

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ  
كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقييح حاله فعبر عنه بالأعمى « إِنَّمَا  
يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى : العقول البراة عن مشايعة الإلـف ومتابعة الوهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّاقَ)

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ » أى : مما كلفهم به « وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّاقَ » أى : ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من الموائيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بمد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل - أفاده أبو السمود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحمهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكف الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يهابون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالحسن الكلام الحسن السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) الآية ، أو يبتعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .



السبئة الحسنة لتمحوها « أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » أى : عاقبة الدنيا وهى الجنة لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للمهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ،

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ )

[٢٤] ( سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ )

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووجد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السمود : وفى التقييد بالصالح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

وأصله للزجاج حيث قال : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

وقرى - شاذاً - بضم لام ( صلح ) . قال الزخمرى : والفتح أفصح .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ )

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ « أى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى <sup>(١)</sup> ( أَيْخَسِبُونَ أَنْمَّا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ \* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ) . وتنكير (متاع) للتقاييل كفى آية <sup>(٢)</sup> ( قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ) وقال <sup>(٣)</sup> : ( بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم <sup>(٤)</sup> : ( فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والافتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يعمل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيثهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب مِنْ مِثْلِهِ ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . ! ولكنهم قوم

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٥٥ ] . (٢) [ ٤ / النساء / ٧٧ ] .

(٣) [ ٨٧ / الأعلى / ١٦ و ١٧ ] . (٤) [ ٢١ / الأنبياء / ٥ ] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاعوا عنه فأزاع الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة ، إيجازاً للملم بها .

قال أبو السمود : ( قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أى يخلق فيه الضلال احصره اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعله بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة ، والعماد ، والغلو فى الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : ( وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ) أى : أقبل إلى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابة الدخول فى نوبة الخير . وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة ، كما فى الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإفلاع عما هم عليه من العتو والعماد . وإيثار صيغة الماضى للإيحاء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .  
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ )

« الَّذِينَ آمَنُوا » بدل من ( من أناب ) أى : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أى تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والمدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أى : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاءً منه ؛ وقد ر بمضمهم مضافاً .  
أى بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

( بذكر الله ) القرآن ، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ) وقال سبحانه : <sup>(٢)</sup> : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها . وهذا المعنى يناسب قوله <sup>(٣)</sup> : ( لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ ) أى : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم يرد اليقين . قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٢٩ ] ( الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ )

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ » الموصول إما مبتدأ (وطوبى لهم ) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمحذوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجملة ( طوبى لهم ) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشري : ( طوبى ) مصدر من ( طاب ) كبشرى وزلفى ، ومعنى ( طوبى لك ) أصبت خيراً وطيباً . ومحلهما النصب أو الرفع . كقولك . طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك . والقراءة فى قوله ( وحسن مآب ) بالرفع والنصب تدل على محليها ، واللام فى ( لهم ) للبيان مثلها فى ( سقياً لك ) ، والواو فى ( طوبى ) منقابلة عن ياء ، اضممة ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبى لهم بالتثنية .

قال الفاسي : ومن نون ( طوبى ) جملة مصدراً بغير ألف كسقياً وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى ( لسان العرب ) عن قتادة ؛ أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطودَ بالقرى ورسلًا ببيطين العراق وفومها

الرسل اللبن ، والطود : الجبل ، والفوم : الخبز والحفظة - كذا فى ( تاج العروس ) .

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٠ ] . (٢) [ ١٥ الحجر / ٩ ] . (٣) [ ١٠ / يونس / ٢٠ ] .

[٣٠] (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

« كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى : لتبأفهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم، كما بلغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى : يكفرون بالبلغ الرحمة، الذى وسعت رحمته كل شيء . والمدلول إلى المظهر الدال على الرحمة، إشارة إلى أن الإرسال نائى منها ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحي الذى هو مدار المنافع الدنيوية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية <sup>(٢)</sup> أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم؟ كما فى الصحيح . وقد قال تعالى <sup>(٣)</sup> (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) . وفى (صحيح مسلم) <sup>(٤)</sup> عن ابن عمر مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحي وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارى فى :

٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان ، وهو حديث طويل جامع ، فلا يفتك الاطلاع عليه . ففيه غنم كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّهُ بِهٍ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا » أى قرآنًا مَّا « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارها ، وزعزت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شُقَّتْ حتى تقصد وتصدر قطعاً « أَوْ كُلُّهُ بِهٍ الْمَوْتَى » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى : لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدرُوا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات . فاقرحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب ( لما آمنوا به ) كقوله : <sup>(١)</sup> (وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى . . . ) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء ؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بمضمم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكور من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدمًا ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفى ، أى : لو أن قرآنًا فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن .

(١) [ ٦ / الأنعام / ١١١ ] .

ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح .  
أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكيم أو اقتراح . كذا فى  
أبى السمود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا » أى :  
أفلم يعلم ويتبين كقولہ (١) :  
أَلَمْ يَيْئَسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا  
وقوله (٢) :

أقول لهم بالشَّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيَاسُّوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ  
أى : أَلَمْ تَعْلَمُوا ! وييسروننى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأسروننى  
من (الأسر) . أى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ هَدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ ، لأن الأمر له . ولكن قضت  
الحكمة أن يكون بقاء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »  
أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتماذى فيه . وعدم بيانه لهويله أو استهجانه . والقارعة :  
الدهامية التى تفرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و ٢٩١ ( طبعنا ) .

(٢) انظر مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، الصفحة رقم ٣٣٢ من الجزء الأول ، والبيت رقم ٣٨٣ .

وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ نَحْلُ » أى : تلك القارعة « قَرِيْبًا » أى : مكانا قريبا « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويقتطِر إليهم شررها « حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أى : فتح مَكَّة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأنبايعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( فَلَا تَخْشَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ) وفى الآية وجه آخر ، وهو حمل (الذين كفروا) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، نصيبهم التوارع فى الدنيا أو نصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى <sup>(٢)</sup> : ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْغُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لِمَعْلَهُمْ يَرْجُمُونَ ) وقوله <sup>(٣)</sup> : ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[ ٣٢ ] ( وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ )

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : أمهلهم وتركهم ملاوة من الزمن ، فى أمن ودعة ، كما على البهيمية فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والافتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

(١) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٧ ] . (٢) [ ٤٦ / الأحقاف / ٢٧ ] .

(٣) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .



القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُومَهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه - إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك - وإنما حذف اكتفاءً بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله : « قُلُومَهُمْ » تبيكيت لهم إثر تبيكيت ، أى : سموهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لاحقيقة لهم ! أوصفهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشراكة ؟

وقال الرازى : إنما يقال ذلك فى الأمر المستحق الذى بلغ فى الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : ستمه إن شئت ، معنى : أنه أخس من يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سموهم بالآلهة ، على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشر كء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لاحقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشر كء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

مجيء النفي على هذا السنن المتلوّ بديعٌ لا تكتمنه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلي بهذا التصريف البديع لكان : وجهلوا الله شركاء وما هم بشركاء . فلم يكن بهذا الموقع الذي انقضت التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أى : بل اتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنحى كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ) . ( مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ) <sup>(٢)</sup> وعن الضحاك : إن الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله <sup>(٣)</sup> :

وذلك عارٌ يا ابن ربيعة ظاهراً . .

تفنيه :

قال الزمخشري : هذا الاحتجاج وأساليبه المجيبة التي ورد عليها ، منادٍ على نفسه بلسان طلق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى ( أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ) لما كان كافياً في هدم قاعدة الإشراف مع السابق واللاحق وماض من زيادات الفسكت ، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذبلاً بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يقوم فيه ذلك أدنى توهم ، وروى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على الكناية الإيمائية . ثم بوانح بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية القلوبجية استدلالاً بنفي العلم عن نفي المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئصال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السر والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفي جمل اتخاذهم شركاء .

(١) [ ٩ / التوبة / ٣٠ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٤٠ ] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا من هو قائله ، ولم أهتد إليه فيما بين يدي من الكتب .

فن داره فليثبتته هنا مشكوراً مأجوراً .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباء له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب  
عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لدى عيين وماتلك التسمية إلا بظاهر من القول لا طائل  
تحت بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حق التأمل ، اعترف بأنه كلام خالق القوي والقدر ، الذي تغف دون أستار  
أسراره أفهام البشر ... !

وقوله تعالى : « بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَسْكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم .  
كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ،  
فلا ينقفعون بهذه الدلائل .  
وقوله تعالى :

« وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا  
الناس « وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، أو يحذله « فَمَالَهُ مِنْ  
هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ( لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ وَّاقٍ )

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين ، أو مافيه من عذاب  
الحيرة والضلالة . فإن نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداء دوى لا برء له إلا الإيمان . كما  
فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كتماً وكيفاً « وَمَا  
لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ » أى : حافظ يصمهم من عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ )

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصي « تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » .  
في الآية وجوه من الإعراب :

( الأول ) : أن ( مثل ) مبتدأ خبره محذوف ، أى : فيما يقص ويقتل عليكم صفة الجنة ، وجملة ( تَجْرَى ) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال من ضمير ( وعد ) أى : وعدها مقدراً جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل . وقدّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو أثلاً يفصل به بينه وبين ما يفسره ، أو ما هو كالمفسر له .

( الثاني ) : أن خبره ( تَجْرَى ) - على طريقة قولك : صفة زيد أسمر - قيل : هو غير مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار في صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث الضمير المائد على المثل حملاً على المعنى .

( الثالث ) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وقوله ( وظلها ) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْب )

وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن ؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيقته التي لا يمتري فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى كما قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابَ بَتَلُونَهُ حَقَّ تَبَلُّوْنِهِ ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى بقية أهل الكتاب والمشركون « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم ، وجوز أن يراد ( بالموصول ) من يفرح به منهم لجرد تصديقه لما بين يديه وتمظيمه له وإن لم يؤمنوا . و ( الأحزاب ) المشركون ، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد . ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا » أى : لا إلى غيره . « وَإِلَيْهِ مَأْبِر » أى : مرجى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ )

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » أى : حاكماً بالحق ، أو حكمة عربية « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ »

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢١ ] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ « أَيْ لَنْ تَابِتَهُمْ عَلَى دِينٍ، مَا هُوَ إِلَّا أَهْوَاءُ بَعْدَ ثَبُوتِ الْعِلْمِ عِنْدَكَ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجُجِ فَلَا يَنْصُرُكَ نَاصِرٌ وَلَا يَقِيكَ وَاقٌ . وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِلْهَابِ وَالتَّهْيِيجِ وَابْعَثِ لِلْسَامِعِينَ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الدِّينِ وَالتَّصَلُّبِ وَأَنْ لَا يَزِلَّ زَالَ عِنْدَ الشَّهَةِ بَعْدَ اسْتِمْسَاكِهِ بِالْحُجَّةِ ، وَإِلَّا فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ الشُّكْيَةِ بِمَكَانٍ - كَذَا فِي ( الْكَشَافِ ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أَيْ : مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ ذُّ لِقَوْلِهِمْ : لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَكَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا قَالُوا <sup>(١)</sup> : ( مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ ) ، وَإِعْلَامٌ ، أَنَّ ذَلِكَ سَنَةٌ كَثِيرٌ مِنَ الرُّسُلِ ، فَمَا جَازَ فِي حَقِّهِمْ لِمَ لَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لَهُ <sup>(٢)</sup> : ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ) . « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أَيْ : مَا صَحَّ لَهُ وَلَا اسْتِقَامَ وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْمِهِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يَقْتَرِحُ عَلَيْهِ ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى فِي وَقْتِهِ ، لِأَنَّ الْآيَاتِ مَعِينَةٌ بِإِزَاءِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ، مِنْ غَيْرِ يَغْيَرٍ وَتَبَدُّلٍ وَتَقَدُّمٍ وَتَأَخُّرٍ . فَأَمْرُهَا مَنْوُوطٌ بِمَشِيئَةِ تَعَالَى ، الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي عَلَيْهَا يَدُورُ أَمْرُ الْكَائِنَاتِ « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أَيْ لِكُلِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ أَمْرٌ مَكْتُوبٌ ، مُقَدَّرٌ مَعْيَنٌ أَوْ مَفْرُوضٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى الْخَلْقِ حَسَبِ تَقْتَضِيَةِ الْحِكْمَةِ فَالْشَّرَائِعُ مَعِينَةٌ عِنْدَ اللَّهِ بِحَسَبِ الْأَوْقَاتِ ، فِي كُلِّ وَقْتٍ يَأْتِي ، بِمَا هُوَ صَلاَحُ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ ، وَكَذَا جَمِيعُ الْحَوَادِثِ مِنَ الْآيَاتِ

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٧ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ١١٠ ] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار وافتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره .  
وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول في قاويل قوله تعالى :

[٣٩] ( يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ )

« بَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَيُثَبِّتُ » أى بدّله ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازى : العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أمّا له ، ومنه أم الرأس للماغوام القرى لسكة . وكل مدينة فهي أمّ لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب . روى على بن أبى طلحة<sup>(٢)</sup> عن ابن عباس فى الآية يقول : يبدل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله ( وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ) يقول : وجعله ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى ( مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ... ) الآية .

تنبيه :

تمسك جماعة بظاهر قوله تعالى : ( يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ) فقالوا : إنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يمحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازى : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويقتضرون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير<sup>(١)</sup> عن عمر وابن مسعود . وليس في الصحيح شيء منها .

ظَهَرَ لِي \* في دمر في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :  
إنَّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما ، أن يدق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنَّ ظاناً أنه يستدل بها في بحث آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثير من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لَكَ مَثَلًا قَوْلَهُ تَعَالَى ( يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ) فكم ترى من يستدل بها على العلم الملق ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه ( لوح المحو والإثبات ) ويرددون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمئناً .  
مع أنَّ هذه الآية ، لو تمتم فيها القارىء ، لعلم أنها في معنى غير ما يتوهمون . وذلك أنهم كانوا يفترون على رسول الله ﷺ ، في أوائل البعثة ، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى . توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان . فأعلمهم الله تعالى أنَّ دور تلك الآيات الحسبية انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعبد البشر للتعبه إلى الآية العقلية ، وهي آية الاعتبار والتبصر . وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلي وأوضح وأدل على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : ( وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧ و١٦٨ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

\* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .



لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ  
وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ...  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :  
[٤٠] ( وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ  
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ )

« وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى : من إزال العذاب فى حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ »  
أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحي « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى :  
حسابهم وجزاءهم . قال أبو حيان : جواب الشرط الأول ( فذلك شافيك ) والثانى ( فلا لوم  
عليك ) وقوله تعالى ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ... ) الخ دليل عليهما .  
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :  
[٤١] ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللَّهُ يَنْخُصُّهُمْ  
لَا مُمْقِبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ )

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى : أرض الكفرة . ننقصها  
عليهم بإظهار دين الإسلام فى أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس : أى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقص  
أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده ، ونظيره  
قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ )

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٤ ] .

وقوله <sup>(١)</sup> : ( سَتَرِيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ... ) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . معنى لم يؤخر عذابهم لإهمالهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سِنَّةِ الغفلة . ومعنى ( نَأْتِي الْأَرْضَ ) يَأْتِيهَا أَمْرُنَا وَعَذَابُنَا . انتهى .

وقيل : نقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم . فهؤلاء الكفرة كيف آمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبيه :

يذكرون - ها هنا - رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهرى حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق <sup>(٢)</sup> :

وَأَسْأَلُ بِنَا وَبِكُمْ إِذَا وَرَدَّتْ مِثِّيْ أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيْلَةٍ، مَنْ يَتَّبِعُ

يريد أشراف كل قبيلة . فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال ! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفأك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب

(١) [ ٤١ / فصلت / ٥٣ ] .

(٢) فى الديوان ( صفحة ٥٢٦ ) من يسمعُ عوضاً عن ( من يتبع ) .

ومطلع القصيدة :

بَيِّنْ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ مُجَاشِعٌ أَوْ نَهْشَلٌ تَلِمَاتِكُمْ مَا تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحتها وكلها وعمرانها ، فوثقهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرفُ  
كالأرض تحيي إذا ما النيثُ حلَّ بها وإن أبى عاد في أكثافها التلُّفُ  
ولذا قال الأزهريّ كما في ( لسان العرب ) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ،  
( ونقصها من أطرافها ) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا من فسر ( نقصها من أطرافها )  
فتوح الأرضين . وأما من جمل ( نقصها من أطرافها ) موت علمائها فهو من غير هذا ، قال :  
والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالعرز  
والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من الخايل والآثار وفى الاتفات من  
التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة  
وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهى جملة اعتراضية جىء بها  
لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُمْقَبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علو شأن حكمه  
تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه - كما تقول : جاء زيد  
لا عمامة على رأسه ، أى حاسراً . و ( المقب ) من يكرّر على الشئ فيبطله ، وحقيقته من يعقبه  
ويقفيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ مَرِيعُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا  
بالقتل والأسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ )

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا » إشارة إلى ضعف مكدهم ولا ضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإهمال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يوحى إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفىها جزاءها المدة لها على ما كسبت من فنون المعاصى التى منها مكدهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى (١) : ( وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ \* فَبَلَغُوا خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ... ) الآية .

القول فى تأويل تعالى :

[٤٣] ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ )

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جمل هذا شهادة ( وهو فعل والشهادة قول ) على سبيل الاستعارة ، لأنه يفتى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعم من القول والفعل . على

(١) [ ٢٧ / النمل / ٥٠ - ٥٢ ] .

أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهي كلامه تعالى ، وقد قال تعالى <sup>(١)</sup> : ( وَبَسِّتْنَاهُ نَازِحًا أَلْفًا هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي ) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبي ﷺ ونعمته في كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى <sup>(٢)</sup> : ( الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ) وقال تعالى <sup>(٣)</sup> : ( أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) .

ويروى عن مجاهد أنه عني بـ ( مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المسكية ربما وجد فيه مدنى وبالعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في ( دلائل النبوة ) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكنتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، وبليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

( ١٤ - سورة إبراهيم و ١٥ - سورة الحجر و ١٦ - سورة النحل و ١٧ - سورة الإسراء )

~~~~~

(١) [ ١٠ / يونس / ٥٣ ] . (٢) [ ٧ / الأعراف / ١٥٧ ] .

(٣) [ ٢٦ / الشعراء / ١٩٧ ] .













